ولأول مرة في تاريخ العالم

ج١

آية الله العظمى

الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي

(قدس سره الشريف)

التنضيد الإلكتروني

المستقبل للثقافة والإعلام

بيروت لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على محمد وآله الطيّبين الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى يوم الدين.

وبعد: فهذا شيء من تاريخ الرسول الأعظم (ص) سميناه: (ولأول مرة في تاريخ العالم) لأنه لأول مرة في التاريخ وبعد فترة من الرسل ظهرت هذه الحركة الإصلاحية السلمية الشاملة، والإلهية المباركة، بقيادة الرسول الأعظم محمد بن عبد الله (ص) وذلك بهذا الشكل الذي لا يزال يتفاعل في النفوس، ويترك أثره الطيب في العالم حتى اليوم وإلى أن يظهر على الدين كله في زمان الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

والله أسأل القبول والفائدة وهو المستعان.

قم المقدسة

محمد الشيرازي

الإسم والنسب

أما اسمه ونسبه:

فهو (ص): أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لُؤيّ غالب بن فهر بن مالك بن النَّضر بن كِنانة بن خزيمة بن مُدركة بن الياس بن مُضَر بن نِزار بن معدّ بن عدنان، وعدنان من وُلد إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام) وإسماعيل هو الذبيح.

ولد (ص) بمكة عام الفيل، وكانت وقعة الفيل تقدمة قدمها الله تعالى لنبيه (ص)، وإلا فأهل الفيل نصارى أهل كتاب، دينهم خير من دين أهل مكة، لأنهم عبّاد أوثان، غير انّ أولئك كان يرأسهم ظالم غاشم وهو (أبرهة) فجرّ عليهم الوبال، وهؤلاء كان يرأسهم مؤمن عادل وهو جد النبي (ص) فعمّهم عدله، ونصرهم الله نصراً لا صنع للبشر فيه، فأباد جيش الفيل الرهيب وحفظ ببركة نبيّه قريشاً من القتل، وبيته من الهدم، وحرمه من الهتك.

ولد (ص) يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأوّل، وبُعِث بالنبوة في السابع والعشرين من شهر رجب، وأنزل عليه القرآن كاملاً في ليلة القدر، ثمّ نزل عليه تدريجاً في مدة ثلاث وعشرين سنة، وتوفي (ص) مسموماً شهيداً في الثامن والعشرين من شهر صفر عام أحد عشر هجرية.

الشجرة الطيّبة

أما جد النبي (ص) هاشم بن عبد مناف: فكان كبقية أجداده مؤمناً بالله تعالى وسيد قريش، وإليه يُشار بالبنان في الفضل والكرم، وكان موسراً، وهو أول من سنّ الرحلتين لأهل مكة: (رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ)([1])، وأول من أطعم قومه الثريد بمكة، حتى قال الشاعر فيه:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه قومٍ بمكة مسنتين عجافِ.

وأما جدّه عبد المطلب: فهو الذي نذر لله تعالى لئن آتاه الله عشرة من الولد يمنعونه، لينحرن أحدهم عند الكعبة، فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم يمنعونه، جمعهم فأخبرهم بنذره

[1] – قريش: ٢.

ودعاهم إلى الوفاء، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟

قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتوني، ففعلوا.

فقال لصاحب القداح: اضرب على بنيَّ هؤلاء بقداحهم هذه، وأخبره بنذره، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه، وكان عبد الله بن عبد المطلب أحبّ ولده إليه، فكان يرى أن السهم إذا أخطأ فقد أشوى، فلما أخذ صاحب القداح القداحَ ليضرب بها قام عبد المطلب يدعو الله تعالى، ثم ضرب صاحب القداح فخرج على عبد الله، فأخذ بيده وأخذ الشفرة، فقامت إليه قريش من أنديتها فمنعوه من ذلك.

وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم . وكان عبد الله ابن أخت القوم .: والله لا تذبحه حتى تعذر فيه أبداً، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه.

ثم عرضوا عليه أن يضربه في ابله السوائم عشرة عشرة، فوافق عبد المطلب عليه وقام يدعو الله تعالى، ثم قربوا عبد الله وقربوا عشراً من الإبل، وعبد المطلب يدعو الله، فضربوا فخرج القدح على عبد الله، فلم يزالوا يزيدون عشراً والقدح يخرج على عبد الله، إلى أن بلغوا مائة من الإبل، وقام عبد المطلب يدعو الله فخرج القدح على الإبل، ثم أعادوا الثانية فخرج على الإبل، ثم أعادوا الثالثة فخرج على الإبل، فنحرت وتُركت لا يُصدُّ عنها إنسان ولا يمنع، فجرت الدية في العرب مائة من الإبل، وأقرّها رسول الله (ص) في الإسلام.

وروي عن النبي (ص) أنه قال: (أنا ابن الذبيحين) ([٢]) يعني: جدّه إسماعيل (ع)، وأباه عبد الله (ع).

وقد كان عبد المطلب فعل ذلك لإبطال عادة كانت في الجاهلية، وهي قتل الأولاد بسبب النذر أو غيره، كما كان إبراهيم (ع) فعل ذلك من قبل لهذه الغاية أيضاً.

أما عبد الله أبو رسول الله (ص) فهو: ابن عبد المطلب صاحب النذر المذكور، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب وأعفّهم، وكان أبوه يحبه كثيراً.

توفي عبد الله والنبي (ص) حمل في بطن أُمه.

وكان جميع ما خلفه عبد الله . على قول . خمسة أجمال، وجارية حبشية اسمها: بركة، وكنيتها: أُم أيمن، وهي حاضنته، وكان عبد الله (ع) مؤمناً موحّداً.

---

[٢] – بحار الأنوار: ج ١٢ ص ١٣٢ ب ٦ ح ١٧، و: ج ٣٦ ص ٤٧ ب ٣٢ ح ٧.

وأُمه (ص): آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب، وكانت مؤمنة بالله تعالى.

ولد مختوناً مسروراً، فأعجب به عبد المطلب جدّه، وحظى عنده، وقال: ليكونن لهذا شأن.

ارهاصات المولد الشريف

ولما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله (ص) ارتجّ إيوان كسرى وانشقّ من وسطه، وسقط منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك مدة ألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، وفاض وادي سماوة.

ولعل في سقوط الأربع عشرة شرفة إشارة إلى أنه يملك منهم ملوك وملكات بعدد الشرفات، ثم ينتهي حكمهم وتنهار الإمبراطورية الفارسية، وكان كذلك حيث تمّ بعدها على أيدي المسلمين فتح إيران، وبذلك سقطت الإمبراطورية الفارسية.

كما ان في إخماد نار فارس إشارة إلى انتهاء دين فارس، وهكذا حال بحيرة ساوة وهي بحيرة في فارس.

وأما فيضان وادي سماوة: فسماوة من بلاد العرب، وفيه إشارة إلى فيضان دين الإسلام إلى كل العالم.

ولما ولد (ص) قالت أُمه: والله لما وضعت حملي على الأرض اتكأ بيديه على الأرض ورفع رأسه إلى السماء وأدار ببصره إلى الآفاق، وهو يتفوّه بالتوحيد، ثم سطع منه نور أضاء كل شيء حتى رأيت منها قصور الشام، وإذا بهاتف يهتف بي قائلاً: ولدتِ خير الناس فسمّيه محمداً.

ثم أرسلت أُمه إلى جدّه عبد المطلب وكان يطوف بالبيت تلك الليلة فجاء إليها فقالت له: ولد لك مولود له أمر عجيب، ثم أخرجته له، فنظر إليه وأخذه ودخل به الكعبة ودعا الله تعالى ثم خرج فدفعه إليها وسمّاه محمداً.

أيام الرضاع

وأرضعته (ص) ثويبة عتيقة أبي لهب، أعتقها حين بشّرته بولادته (ص).

وقيل: انه رؤى أبو لهب بعد موته في النوم فقيل له: ما حالك؟ فقال: في النار، إلا أنه يخفّف عني كل أُسبوع يوماً واحداً وأمص من بين إصبعيَّ هاتين ماء . وأشار برأس إصبعه . وان ذلك اليوم هو يوم اعتاقي ثويبة عندما بشّرتني بولادة النبي (ص) وبإرضاعها له.

وأرضعت ثويبة أيضاً مع رسول الله (ص) . بلبن ابنها مسروح . حمزة عمّ رسول الله، وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، ثم أرضعته (ص) حليمة السعدية، والظاهر انهنّ كنّ مؤمنات بدين إبراهيم (ع) فلم يكنّ مشركات.

فقدان الأُم

لم يستكمل النبي (ص) سبع سنين إلا وفقد أُمه، وذلك حين انصرافها من زيارة أخواله بني النجار، وكانت خرجت به معها، ومعه حاضنته أُم أيمن، فقدمت به أُم أيمن إلى مكة بعد موتها، فكفله جده عبد المطلب، ورقَّ عليه لمعرفته بأمره وإيمانه به رقة لم يرقها على أحد من أولاده، فكان لا يفارقه، وما كان يجلس على فراشه إجلالاً له إلاّ رسول الله (ص).

وقدم مكة قوم من بني مدلج من القافة، فلما نظروا إليه قالوا لجده: احتفظ به، فلم نجد قَدَماً أشبه بالقدم الذي في المقام من قدمه، فقال عبد المطلب لأبي طالب وهو يوصيه به: اسمع ما يقول هؤلاء واحتفظ به.

فقد الجد

وتوفى جده عبد المطلب (ع) في السنة الثامنة من مولده (ص)، وأوصى به إلى أبي طالب (ع).

وكان عبد المطلب من سادات قريش، مؤمناً بالله تعالى . وكذا كان أبو طالب . محافظاً على العهود، يتخلّق بمكارم الأخلاق، يحب المساكين، ويقوم بالحجيج، ويطعم حتى الوحوش والطير في رؤوس الجبال، ويطعم في أزمان القحط، ويقمع الظالمين.

في كفالة أبي طالب

ثم قام أبو طالب بكفالة النبي (ص) من سنة ثمان من مولده إلى السنة العاشرة من النبوة ثلاثاً وأربعين سنة يحوطه ويقوم بأمره ويذبُّ عنه ويلطف به.

ونقل عن جُلهمة بن عرفطة قال: قدمتُ مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادي وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس ضحى تجلّت عنه سحابة قتماء حوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بإصبعه الغلام وما في السماء قُزَعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا وأغدق واغدودق، وانفجر الوادي وأخصب النادي والبادي، وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه***ثِمال اليتامى عصمة للأرامل

و(الثمال) بكسر المثلثة: الملجأ والغياث.

في طريق الشام

ولما بلغ رسول الله (ص) اثنتي عشرة سنة خرج مع عمه أبي طالب (ع) حتى بلغ (بُصرى) فرآه بحيرا الراهب . واسمه جرجيس . فعرفه بصفته، فقال وهو آخذ بيده: هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين.

فقال: وما علمك بذلك؟

فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة أقبل وعليه غمامة تظلّه، ولم يبق حجر ولا شجر إلاّ وخرّ ساجداً، ولا تسجد إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا، وسأل أبا طالب أن يردَّه خوفاً عليه من اليهود.

ثم خرج (ص) مرة أخرى، ومعه ميسرة غلام خديجة في تجارة لها، حتى بلغ سوق بُصرى وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، فنزل تحت ظل شجرة، فقال نسطور الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبيّ، وكان ميسرة يرى في الهاجرة ملكين يظلاّنه من الشمس، فلما رجعوا إلى مكة ساعة الظهيرة وخديجة في علية لها، رأت رسول الله (ص) وهو على بعيره وملكان يظلانه.

الزواج المبارك

تزوّج رسول الله (ص) وعمره خمس وعشرون عاماً بالسيّدة خديجة، وكان لها . على ما قيل . حين تزوّجها من العمر أربعون سنة، فولدت لرسول الله (ص) بنين وبنات، وكل أولاده (ص) من خديجة، ماعدا إبراهيم، فإنه من (مارية القبطية)، فالذكور من ولده: القاسم . وبه

كان يُكنّى ـ وهو أكبر ولده (ص).

والقاسم هذا كان يُدعى بالطاهر، وولد له عبد الله وكان يدعى بالطيّب.

وأما إبراهيم فولد له بالمدينة وعاش عامين غير شهرين ومات قبل موته (ص).

وأما بناته منها، فأربع:

زينب: تزوّجها أبوالعاص بن الربيع، وكانت خديجة خالته، وولدت له علياً وأُمامة، أما علي فمات مراهقاً، وأما أُمامة فتزوّجها علي (ع) بعد فاطمة، وماتت زينب في حياة أبيها رسول الله (ص)، وذلك لسبب إخافة هبّار لها وإسقاطها جنينها.

ورُقَية: وتزوّجها عثمان، فولدت له ابناً مات وله من العمر أربع سنين.

وأم كلثوم: وتزوّجها عثمان بعد موت رقية، وماتت عنده أيضاً كما ماتت رقية قبلها عنده.

وذهب بعض إلى أن بعضهنّ كنّ متبنيات للنبي (ص).

وفاطمة (عليها السلام): تزوَّجها علي بن أبي طالب (ع)، فولدت له الحسن والحسين (عليهما السلام) وزينب وأُم كلثوم وابناً مات شهيداً اسمه المحسن، وهي (عليها السلام) وحدها التي بقيت بعد أبيها رسول الله (ص) لكن لم يطل بقائها بعده حتى لحقت به (ص) سريعاً، وذلك على أثر الضرب المبرح الذي كسر به ضلعها وأسقطت منه جنينها محسناً.

كانت خديجة أول امرأة آمنت برسول الله (ص) وأول امرأة صلّت مع رسول الله (ص) وواسته بنفسها ومالها حتى أنفقت كل مالها في سبيل الله، ودخلت الشعب معه، وكانت هي أول امرأة تزوّجها، وأول امرأة ماتت من نسائه، ولم ينكح عليها في حياتها غيرها، وأمره جبرائيل أن يقرأ عليها السلام من ربها، كما أمره أن يعطي فدكاً إلى فاطمة (عليها السلام) بدل ما أنفقته أُمها خديجة (عليها السلام) في سبيل الله من أموالها.

مع حلف الفضول

حضر رسول الله (ص) (حلف الفضول) واشترك فيه.

ذكر المؤرخون: انه اجتمع رؤساء مكة في دار عبد الله بن جُدْعان، وكان أكرم حلف سمع به في العرب وأشرفه، وكان أول من تكلّم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب.

وكان سببه: أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل ـ وكان ذا

قدر بمكة وشرف . فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي، الأحلاف: عبد الله، ومخزوماً، وجُمَحاً، وسهماً، وعدياً، فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل، فعلا جبل أبي قبيس . وقريش في أنديتهم حول الكعبة . فنادى بشعر يصف فيه ظلامته رافعاً صوته، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار ابن جُدعان، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام قياماً، فتعاهدوا وتعاقدوا بالله ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدّى إليه حقه ما بلّ بحر صوفة .كناية عن انه دائماً وأبداً . فسمّت قريش ذلك الحلف (الفضول).

وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه مال الزبيدي وسلموه إياه.

وقال الزبير بن عبد المطلب في ذلك:

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا *** ألاّ يقيم ببطن مكة ظالم

أمر عليه توافقوا وتعاقدوا *** فالجار والمعترُّ فيهم سالم

ثم ان رسول الله (ص) حين أرسله الله تعالى قال وهو يشير إلى حلف الفضول: (لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت).

تجديد بناء الكعبة

ولما بنت قريش الكعبة ورفعت سمكها وتأتي لها ما أرادت في بنائها من الخشب الذي قيل انه ابتاعوه من السفينة التي رمى بها البحر إلى ساحله وكان قد بعث بها ملك الروم من القُلزُم من بلاد مصر إلى الحبشة ليبني بها هناك كنيسة، وانتهوا إلى موضع الحجر تنازعوا أيهم يضعه، فاتفقوا على أن يرتضوا بأول من يطلع عليهم من باب بني شيبة، فكان أول من ظهر لأبصارهم النبي (ص) من ذلك الباب، وكانوا يعرفونه بـ(الصادق الأمين) لوقاره، وهديه، وصدق لهجته، واجتنابه الأدناس، فحكّموه فيما تنازعوا فيه، وانقادوا لقضائه، فبسط (ص) ما كان عليه من رداء، وأخذ (ص) الحجر فوضعه في وسطه، ثم قال لهم: ليأخذ كل واحد منكم بجنبة من جنبات هذا الرداء.

ففعلوا ورفعوه من الأرض وأدنوه من موضعه، فأخذ (ص) الحجر ووضعه مكانه، وقريش

كلها حضور، فكان ذلك مما ظهر من فعله وقضاياه وأحكامه، فقال قليل ممن حضر من قريش تعجباً من فعلهم وانقيادهم إلى أصغرهم سناً: واعجباً لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول عمدوا إلى أصغرهم سناً وأقلهم مالاً فجعلوه رأساً حاكماً! أما انه ليفوتنهم سبقاً، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً، وليكونن له بعد هذا اليوم شأناً ونبأ عظيماً.

كما انّ رسول الله (ص) كان ينقل معهم الحجارة عند تجديد بناء الكعبة.

الجاهلية وعبادة الأصنام

كان الجاهليون يعبدون الأصنام في الجاهلية، فلما بعث رسول الله (ص) أبطلها وأتى عليها.

قال أبو رجاء: كنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه، ثم طفنا به.

وروى الدارمي عن مجاهد قال: حدثني مولاي: أن أهله بعثوا معه بقَدح فيه زبد ولبن إلى آلهتهم، قال: فمنعني مخافتها أن آكل الزبد، قال: فجاء كلب فأكل الزبد وشرب اللبن ثم بال على الصنم وهو أساف ونائلة.

وقال بعض المؤرخين: كان الرجل في الجاهلية إذا سافر حمل معه أربعة أحجار: ثلاثة لقدره، والرابع يعبده.

وروي: أن رجلاً أتى النبي (ص) فقال: يا رسول الله، إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد، فكانت عندي بنت لي، فدعوتها يوماً فأتبعتني، فمررت حتى أتيتُ بئراً من أهلي غير بعيد، فأخذتُ بيدها فرديت بها في البئر، وكان آخر عهدي بها تقول: يا أبتاه يا أبتاه، فبكى رسول الله (ص) حتى وكف دمع عينيه.

فقال رجل: أحزنتَ رسول الله؟

فقال له: كفَّ فإنه يسأل عما أهمه. ثم قال: أعد عليّ حديثك، فأعاده، فبكى (ص) حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته، ثم قال له: إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنف عملك.

ولما فتح رسول الله (ص) مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعن

بسبة قوسه في وجوهها وعيونها ويقول: (جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً) ([3]) جاء (الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ) ([4]) وهي تتساقط على رؤوسها، ورفع عليّاً (ع) على كتفه فأسقط ما تبقّى من الأصنام التي كانت منصوبة فوق الكعبة.

من خرافات الجاهلية

وكان من عادة الجاهليين جعل بعض الحيوانات محرمة عليهم مثل:

(البحيرة): وهي التي يمنع درها فلا يحلبها أحد من الناس.

و(السائبة): وهي التي يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها.

و(الوصيلة): وهي الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثنى بعد بأُنثى، وكانوا يسيبونها إن وصلت إحداهما بالأُخرى ليس بينهما ذكر.

و(الحامي): فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا ضربه دعوه وأعفوه من الحمل فلا يحمل عليه، وسموه الحامي.

فلما بعث الله رسوله محمداً (ص) أنزل تعالى: (ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ) ([5]).

وأنزل سبحانه: (وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا....) ([6]).

وقوله تعالى: (قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً....) ([7]).

قريش وسكان الحرم

قال المؤرخون: كانت قريش قد ابتدعت للحُمْس (أي: سكّان الحرم) رأياً رأوه وأرادوه، فقالوا: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاة البيت وقاطنوا مكة وساكنوها، فليس لأحد من

---

[3] – الإسراء: ٨١.

[4] – سبأ: ٤٩.

[5] – المائدة: ١٠٣.

[6] – الأنعام: ١٣٩.

[7] – يونس: ٥٩.

العرب مثل حقنا ولا مثل منزلنا، ولا تعرف له مثل ما تعرف لنا، فلا تعظموا شيئاً من الحل مثل ما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم، وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم. فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرّون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم (ع)، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها، إلا أنهم قالوا نحن أهل الحرم، وليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرم ولا نعظم غيره.

ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياهم، يحل لهم ما يحل لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم، وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك.

ثم ابتدعوا في ذلك أُموراً لم تكن لهم حتى قالوا: لا ينبغي للحمس أن يقطوا الأقط ولا يسلوا السمن وهم حرم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الادم ما كانوا حرماً.

ثم رفعوا في ذلك فقالوا: لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤا به من الحل إلى الحرم إذا جاؤا حجاجاً أو عماراً، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا شيئاً طافوا بالبيت عراة، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس وطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ولم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره، فكانت العرب تسمي تلك الثياب (اللقى) فحملوا على ذلك العرب فدانت به، أما الرجال فيطوفون عراة، وأما النساء فتضع المرأة ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً ثم تطوف فيه، وأحياناً عارية.

فكانوا كذلك حتى بعث الله محمداً (ص) فأنزل الله: (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ) ([8]) يعني قريشاً والعرب، وأنزل تعالى فيما حرموا على الناس من طعامهم ولبوسهم عند البيت: (يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) ([9]) إلى قوله تعالى: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ...) ([10]) وذلك على ما ذكره بعض المفسّرين.

---

[8] – البقرة: ١٩٩.

[9] – الأعراف: ٣١.

[10] – الأعراف: ٣٢.

كانت الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله (ص) قبل مبعثه بما يقارب زمانه.

فأما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى: فعمّا وجدوا في كتبهم صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه.

وأما الكهان من العرب: فلما كانوا يتلقّونه من الجن والشياطين حيث كانت تسترق السمع، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أُموره، ولكن لا تلقى العرب لذلك فيه بالا، حتى بعثه الله تعالى ووقعت تلك الأُمور التي كانوا يذكرون فعرفوها.

فلما تقارب زمان رسول الله (ص) وحضر مبعثه حجبت الشياطين عن السمع وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لاسترق السمع فيها، فرموا بالنجوم، فعرفت الجن أن ذلك لما حدث من أمر الله، وذلك لئلا يلتبس بالوحي، وليكون ذلك أظهر للحجة، وأقطع للشبهة.

روي عن رجل من بني لهب يقال له لهيب قال: حضرت مع رسول الله (ص) فذكرت عنده الكهانة، فقلت: بأبي وأُمي، نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم، وذلك انا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خطر بن مالك . وكان شيخاً كبيراً . وكان من أعلم كهاننا فقلنا: يا خطر هل عندك علم من هذه النجوم التي يرمى بها؟ فإنا قد فزعنا لها وخشينا سوء عاقبتها.

فقال: ائتوني بسَحَر، أُخبركم الخبر، بخير أم ضرر، أو لأمن أو حذر.

قال: فانصرفنا عنه يومنا، فلما كان من غد في وجه السحر أتيناه، فإذا هو قائم على قدميه شاخص في السماء بعينيه، فناديناه: يا خطر، فأومأ إلينا أن أمسكوا، فانقض نجم عظيم من السماء، وصرخ الكاهن رافعاً صوته: أصابه اصابه، خامره عقابه، عاجله عذابه، أحرقه شهابه، زايله جوّابه، ياويله ما حاله، عاوده خباله، تقطعت حباله، وغيرت أحواله، ثم أمسك طويلاً وذكر أشعاراً.

فقلنا له: يا خطر ومن هو؟

فقال: والحياة والعيش، إنه لمن قريش، ما في حلمه طيش، ولا في خلقه هيش، يكون في جيش أي جيش، من آل قحطان وآل أيش.

فقلنا له: بين من أي قريش هو؟

فقال: والبيت ذي الدعائم، والركن والأجائم، إنه لمن نجل هاشم، ومن معشر أكارم، يبعث بالملاحم، وقتل كل ظالم.

ثم قال: هذا هو البيان، أخبرني به رئيس الجان، ثم قال: الله أكبر، جاء الحق وظهر، وانقطع عن الجن الخبر، ثم سكت وأُغمي عليه فما أفاق إلا بعد ثالثة فقال: لا إله إلا الله.

وعن عاصم بن عمرو بن قتادة، عن شيخ من بني قريظة قال: قال لي: هل تدري عمّ كان اسلام ثعلبة بن شعية، وأسيد بن شعية، وأسد بن عبيد إخوة بني قريظة، كانوا معهم في جاهليتهم ثم كانوا سادتهم في الإسلام؟

قال: قلت: لا.

قال: إن رجلاً من اليهود من أهل الشام يقال له الهيبان، قدم علينا قبل الإسلام بسنتين فحلّ بين أظهرنا، لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلّي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا فكنا إذا قحط المطر علينا قلنا له: اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا.

فيقول: لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة.

فنقول له: كم؟

فيقول: صاعاً من تمر ومدين من شعير.

قال: فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقي الله لنا، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونسقى، وقد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث.

قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر اليهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟

قال: فقلنا: أنت أعلم.

قال: فإني قدمتُ هذه البلدة أتوقّع خروج نبيّ قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجره، فكنتُ أرجو أن يُبعَث فأتبعه، قد أظلكم زمانه فلا تُسبقن إليه يا معشر اليهود، فلا يمنعكم ذلك منه.

فلما بُعث رسول الله (ص) وحاصر بني قريظة قال هؤلاء الفتية، وهم: ثعلبة بن شعية، واسيد بن شعية، وأسد بن عبيد، إخوة بني قريظة، وكانوا شباباً أحداثاً: يا بني قريظة والله إنه

للنبي الذي عهد إليكم فيه ابن الهيبان.

قالوا: ليس به.

قالوا: بلى والله، إنه لهو بصفته، فنزلوا فأسلموا وأحرزوا دماءهم وأهليهم.

فصل

في المبعث الشريف

ولما بلغ رسول الله (ص) أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وكافة للناس أجمعين.

وكان الله قد أخذ له الميثاق على كل نبيّ بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدّوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم، فأدّوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه، يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص): (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ) ([11]).

وقيل: انه أول ما بدأ به رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلوة فكان يخلو بغار حراء فيتعبّد فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة(ع) فيتزوّد لمثلها، حتى فجأه الحق في السابع والعشرين من شهر رجب الحرام، وهو (ص) في غار حراء فجاءه

[11] – آل عمران: ٨١.

الملك فقال له: اقرأ!

قال: وما أقرأ؟

قال: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ) ([12]) فرجع بها رسول الله (ص) يرجف فؤاده، حتى دخل على خديجة(ع)، فقال: زمّلوني زمّلوني، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع.

لقاء في الشام

عن عبد الله بن عباس: ان أبا سفيان بن حرب أخبره قائلاً: ان هرقل أرسل إليه في ركب من قريش كانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله (ص) قد أظهر الإسلام وهاجر إلى المدينة وكفار قريش تجحده.

فأتوه وهم بايلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيّكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً.

قال: أدنوه مني وقربوا أصحابه واجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبني فكذِّبوه.

قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثر عليّ كذباً لكذبتُ عليه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال:

كيف نسبكم فيه؟

فقلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟

فقلت: لا.

---

[12] – القلم: ١ – ٥.

قال: فأشرافهم اتبعوه أم ضعفاؤهم؟

قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟

قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتدّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم يمكنّي كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إيّاه؟

قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال: بماذا يأمركم؟

قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت: أن لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسّى بقول قيل قبله.

وسألتك: هل كان في آبائه من ملك؟ فذكرت: أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرتَ: أن لا، فقد أعرف أنه لم

يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك: أأشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ: أن ضعفاءهم اتّبعوه، وهم أتباع الرُسُل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت: أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتدّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت: أن لا، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب.

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت: أن لا، وكذلك الرُسُل لا يغدرون.

وسألتك: بما يأمركم؟ فذكرت: أنه يأمركم بأن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج فلم أكن أظن أنه فيكم، فلو أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعا بكتاب رسول الله (ص) الذي بعث به مع دحية الكلبي إليه فقرأه عليهم فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتّبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرّتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، (يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) ([١٣]).

قال أبو سفيان: فلمّا قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات، وأخرجنا.

فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد عظم أمرُ ابن أبي كبشة، انه ليخافه ملك بني الأصفر.

---

[١٣] – آل عمران: ٦٤.

امتحان واختبار

وقيل: انه كان ابن الناظور صاحب إيليا وهرقل أُسقف على نصارى الشام يحدّث: أن هرقل حين قدم إيليا أصبح يوماً خبيث النفس، فقال له بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك.

قال ابن الناظور: وكان هرقل ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرتُ في النجوم أن ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأُمة؟

فقالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم كذلك إذ جيء إلى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبره عن خبر رسول الله (ص)، فلما استخبره هرقل وسأله عن العرب: أهم يختتنون؟

فقال: هم يختتنون.

فقال هرقل: هذا ملك هذه الأُمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي، وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبي؟

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردّوهم عليّ، وقال: إني قلتُ مقالتي آنفاً أختبر بها شدّتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل.

أول المؤمنين

وكان أول من آمن بالرسول (ص) من الرجال علي (ع)، ومن النساء زوجته خديجة(ع).

وعن أبي ذر انه قال: سمعت رسول الله (ص) يقول لعلي (ع): (أنت أوّل من آمن بي، وأول من يصافحني يوم القيامة، وأنت الصدّيق الأكبر، وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحق

والباطل...) ([14]).

وفي نهج البلاغة: (ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (ص) وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوّة) ([15]).

ثم زيد، وكان غلاماً لخديجة، فوهبته لرسول الله (ص) لما تزوّجها، وقدم أبوه وعمه في فدائه فسألا عن النبي (ص) فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه فقالا: يابن عبد المطلب يابن هاشم يابن سيّد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون العاني وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عبدك فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه.

قال: من هو؟

قالا: زيد بن حارثة.

فقال رسول الله (ص): فهلا غير ذلك؟

قالا: ما هو؟

قال: ادعوه فأُخيِّره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً.

قالا: قد زدتنا على النصف.

فدعاه فقال (ص): أتعرف هؤلاء؟

قال: نعم.

قال: من هذا؟

قال: هذا أبي، وهذا عمّي.

قال: أنا من قد علمتَ ورأيتَ صحبتي، فاخترني أو اخترهما.

قال: ما أنا بالذي أختار عليكَ أحداً، أنت منّي بمكان الأب والعم.

قالا: ويحك يا زيد! أتختار العبودية على الحريّة وعلى أبيك وعمّك وعلى أهل بيتك؟

قال: نعم، قد رأيتُ من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً.

---

[14] – بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٤٣٥ ب ١٢ ح ٤٩، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٣ ص ٢٢٨ ب ٢٣٨ دار إحياء التراث العربي ط ٢.

[15] – نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

فلمّا رأى رسول الله (ص) ذلك أخرجه إلى الحجر فقال: أُشهدكم أنّ زيداً ابني.

فلمّا رأى ذلك أبوه وعمّه طابت نفوسهما فانصرفا، ودعي زيد بن محمّد، حتى جاء الله بالإسلام فنزلت (ادْعُوهُمْ لآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ) ([16]) فدعي يومئذ زيد بن حارثة.

ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدّثت به قريش.

إبلاغ الرسالة

ثم ان الله سبحانه أمر رسوله (ص) أن يصدع بما جاءه منه، وأن ينادي الناس بأمره ويدعو إليه، فأنزل سبحانه: (فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) ([17]). ثم قال تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ، وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) ([18]).

فعن سالم عن علي (ع) قال: أمر رسول الله (ص) خديجة وهو بمكة فاتخذت له طعاماً، ثم قال لي: ادع لي بني عبد المطلب، فدعوتُ أربعين رجلاً.

فقال لي (ص): هلمّ طعامك، فأتيتهم بثريد إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها، فأكلوا منها جميعاً حتى أمسكوا.

ثم قال (ص): اسقهم، فسقيتهم بإناء هو ريّ أحدهم، فشربوا منه جميعاً حتى صدروا.

فقال أبو لهب: لقد سحركم محمد، فتفرقوا ولم يدعهم.

فلبثوا أياماً ثم صنع لهم طعاماً مثله ثم أمرني فجمعتهم فطعموا ثم قال لهم:

(انّ الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلاّ هو اني رسول الله إليكم خاصّة، وإلى الناس عامة، والله لتموتنّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تستيقظون، ولتحاسبنّ بما تعملون، وانها الجنّة أبداً، والنار أبداً).

ثم قال (ص): يا بني عبد المطلب! انني والله ما أعلم أحداً في العرب جاء قومه بأفضل

---

[16] – الأحزاب: ٥.

[17] – الحجر: ٩٤.

[18] – الشعراء: ٢١٤ – ٢١٥.

مما قد جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر، على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟

قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، فقلت . واني لأحدثهم سنّاً: يا نبيّ الله أكون وزيرك، فأخذ (ص) برقبتي ثم قال: انّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا.

قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع([19]).

وعن ابن عباس: لما أنزل الله تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) ([20]) أتى النبي (ص) الصفا فصعده، ثم نادى: يا صباحاه! فاجتمع الناس إليه . بين رجل يأتي إليه وبين رجل يبعث رسوله . فقال رسول الله (ص): يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدّقتموني؟

قالوا: نعم.

قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد

فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلاّ لهذا؟ فأنزل الله تعالى فيه: (تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) ([21]).

موقف أبي طالب (ع)

مضى رسول الله (ص) على أمر الله مظهراً لأمره لا يردّه عنه شيء، فلمّا رأت قريش أنّ رسول الله (ص) لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه، ورأوا أنّ عمّه أبا طالب (ع) قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب وفيهم:

عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وأبو سفيان بن حرب بن أُمية واسمه صخر، وأبو البختري واسمه العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزّى بن قصي، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن العزّى بن قصي، وأبو جهل واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد

---

[19] – راجع شرح النهج لابن أبي الحديد المعتزلي: ج ١٣ ص ٢١٠ . ٢١١ ط دار إحياء التراث العربي.

[20] – الشعراء: ٢١٤.

[21] – المسد: ١.

بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، والعاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم، وغيرهم.

فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلّي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه([٢٢]) فنكفيكه.

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردّ عليهم ردّاً جميلاً، ثم بعث إلى رسول الله (ص)، فلما دخل عليه رسول الله (ص) قال له: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم، وقد سألوك أن تكفّ عن شتم آلهتهم ويدَعوك وإلهك.

قال: يا عم أفلا تدعوهم إلى ما هو خير لهم؟

قال: وإلى ما تدعوهم؟

قال: أدعوهم إلى أن يتكلّموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم؟

فقال أبو جهل من بين القوم: ما هي وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها؟

قال: تقولون: (لا إله إلاّ الله).

فنفروا وقالوا: سلنا غيرها

قال: لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يديّ ما سألتكم غيرها، فقاموا من عنده غضاباً، وولّوا على أدبارهم نفوراً

وهنا التفت أبو طالب (ع) إلى رسول الله (ص) وقال: يا ابن أخي ادع كما أمرت، ثم أنشأ:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم***حتى أُوسّد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة***وابشر وقر بذاك منك عيونا

ودعوتني وعلمت أنك ناصحي***ولقد صدقتَ وكنتَ ثم أمينا

ولقد علمت بأنّ دين محمد***من خير أديان البريّة دينا

[٢٢] – سبق أنّ أبا طالب (ع) كان مؤمناً بالله تعالى.

منطق الجاهليّين

فلمّا نادى رسول الله (ص) بالإسلام وصدع بما أمره الله تعالى به، استجاب له الأحداث من الرجال، والضعفة من الناس، حتى كثر من آمن به، فعظم ذلك على أصحاب الأغراض والأطماع من قومه، ورأوا أنّ مصالحهم الشخصية المعتمدة على عبادة الأصنام مهدّدة بالخطر، فناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته، وأكبّوا على منابذته وايذائه، فحدب أبو طالب (ع) على رسول الله (ص) ومنعه وقام دونه، لأنه بالإضافة إلى ايمانه بالله والرسول (ص) كان شريفاً في قومه، معظّماً في قريش، مطاعاً في أهل مكة، فلم يتجاسروا معه مكاشفة الرسول (ص) بشيء من الأذى.

أما أصحابه:

فمن كانت له عشيرة تحميه امتنع بعشيرته، وأما من لم تكن له عشيرة، فقد تصدّوا له بالأذى والعذاب، فلقي أصحاب رسول الله (ص) من العذاب أمراً عظيماً.

عمّار وأبواه

وكان ممّن عذّبوه: عمّار بن ياسر وأُمّه وأباه، وكان إذا مرّ بهم رسول الله (ص) يقول: صبراً يا آل ياسر فإنّ موعدكم الجنّة، فمات ياسر أبو عمّار تحت التعذيب القاسي، وكذلك ماتت سمية أُم عمار على أثر حربة طعنها في قلبها أبو جهل، وبقي عمّار في أيدي أسياده وأخذوا يعذّبونه أشدّ التعذيب، إلى أن قالوا له: لا نتركك حتى تكفر بمحمّد وإلهه، فأجابهم إلى ذلك مكرهاً، فتركوه، فأتى النبي (ص) معتذراً باكياً، فأنزل الله تعالى: (إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ..) ([٢٣]) فقال له (ص): لا بأس عليك يا عمّار إن عادوا فعد.

مع بلال

وكذلك كان بلال، فإن أسياده كانوا يأخذونه إلى التعذيب خارج مكة، فيطرحونه على الرمضاء ثم يلقون على بطنه الصخرة العظيمة المحماة بالشمس، ثم يأخذونه ويلبسونه في ذلك الحرّ الشديد درع من حديد، ويضعون في عنقه حبلاً ويسلّمونه إلى الصبيان يطوفون به، وهو

[٢٣] – النحل: ١٠٦.

في كل ذلك صابر محتسب لا يبالي بما يلقى في ذات الله، وكان كلما اشتدّ به العذاب يقول: أحد، أحد.

الهجرة إلى الحبشة

فلمّا اشتدّ البلاء عليهم أذن رسول الله (ص) لهم في الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة وقال: إنّ بها ملكاً لا يظلم الناس، وهي أرض صدق، فلو خرجتم إليها حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً ممّا أنتم فيه.

فهاجر إليها جماعة يبلغ عددهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، فخرجوا متسالمين سرّاً فوفّق الله لهم ساعة وصولهم إلى الساحل سفينتين للتجّار فحملوهم فيها إلى أرض الحبشة، وكان خروجهم في رجب من السنة الخامسة من المبعث الشريف، فأقاموا بالحبشة شعبان ورمضان، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر فلم يدركوا منهم أحداً.

ثم رجعوا إلى مكة في شوّال لما بلغهم أنّ قريشاً صافّوا رسول الله (ص) وكفّوا عنه.

ولكن لما وافوها ورأوا الأمر على خلاف ما بلغهم، حيث تعرَّض كثير منهم لأذى المشركين واضطهادهم القاسي وبنحو أشد من المرة الأولى، استأذنوا الرسول (ص) ثانية بالهجرة، فأذن لهم في الهجرة إلى الحبشة مرة ثانية فخرجوا، فكان خروجهم الثاني أشق عليهم وأصعب، وكان عدّة من خرج في هذه المرّة ثلاثة وثمانين رجلاً وثمانية عشرة امرأة قرشيّة وغير قرشية، يرأسهم جعفر بن أبي طالب (ع).

فأكرم النجاشي وفادتهم وآمن بالرسول (ص).

من بركات الهجرة

ولما رأت قريش اطمئنان المهاجرين في أرض المهجر، وحسن صحبة النجاشي لهم، اجتمعوا في دار الندوة وقالوا: إنّ لنا في الذين عند النجاشي ثأراً، فاجمعوا مالاً واهدوه إلى النجاشي لعلّه يدفع إليكم من عنده، ولينتدب في ذلك رجلان من أهل رأيكم، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد مع الهدية فركبا البحر.

فلمّا دخلا على النجاشي سجدا له وسلما عليه وقالا: قومنا لك ناصحون، وإنهم بعثونا إليك لنحذرك هؤلاء الذين قدموا عليك، لأنهم قوم رجل كذاب خرج فينا يزعم أنه رسول الله

ولم يتّبعه إلاّ السفهاء، فضيّقنا عليهم وألجأناهم إلى شِعب بأرضنا لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم أحد، فقتلهم الجوع والعطش، فلما اشتد عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم، وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحيّونك بالتحية التي كنت تحيّا بها، رغبة عن دينك.

فلمّا دعاهم النجاشي وحضروا صاح جعفر بن أبي طالب بالباب: يستأذن عليك حزب الله.

فقال النجاشي: مروا هذا الصائح فليُعد كلامه، ففعل.

فقال: نعم فليدخلوا بأمان الله وذمّته.

فدخلوا ولم يسجدوا له.

قال: ما منعكم أن تسجدوا لي؟

قالوا: نسجد لله الذي خلقك وملّكك، وإنما كانت تلك التحيّة لنا ونحن نعبد الأوثان، فبعث الله فينا نبيّاً صادقاً، وأمرنا بالتحية التي رضيها وهي (السلام) تحية أهل الجنّة.

فعرف النجاشي أن ذلك حق، وأنه في التوراة والإنجيل.

فقال: أيكم الهاتف يستأذن؟

قال جعفر: أنا.

قال: فتكلّم.

قال: إنك ملك لا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم، وأنا أُحب أن أُجيب عن أصحابي، فمر هذين الرجلين فليتكلّم أحدهما فتسمع كلامنا وحوارنا.

فقال عمرو بن العاص لجعفر: تكلّم.

فقال جعفر للنجاشي: سله أعبيد نحن أم أحرار؟ فإن كنّا عبيداً قد أبقنا من موالينا فارددنا إليهم.

فقال عمرو: بل أحرار كرام.

فقال: هل أرقنا دماً بغير حق فيقتص منا؟

قال: لا، ولا قطرة.

قال: فهل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها؟

قال عمرو: ولا قيراط.

قال النجاشي: فما تطلبون منهم؟

قال: كنا وهم على دين واحد، على دين آبائنا، فتركوا ذلك واتبعوا غيره.

فقال النجاشي لجعفر: ما هذا الذي كنتم عليه والذي اتّبعتموه؟ وأصدقني.

فقال جعفر: أما الذي كنا عليه فتركناه فهو دين الشيطان، كنا نكفر بالله ونعبد الحجارة، وأما الذي تحولنا إليه فهو دين الله الإسلام، جاءنا به من الله رسول، وكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقاً له.

فقال النجاشي: تكلمتَ بأمر عظيم فعلى رسلك.

ثم أمر بضرب الناقوس، فاجتمع إليه كل قسيس وراهب، فقال: أُنشدكم بالله الذي أنزل الإنجيل على عيسى، هل تجدون بين عيسى وبين القيامة نبيّاً مرسلاً؟

قالوا: اللهمّ نعم، قد بشّرنا به عيسى وقال: من آمن به فقد آمن بي، ومن كفر به فقد كفر بي.

فقال النجاشي لجعفر: ماذا يقول لكم هذا الرجل؟ وماذا يأمركم به وماذا ينهاكم عنه؟

قال: يقرأ علينا كتاب الله، ويأمرنا بالمعروف، وينهانا عن المنكر، ويأمرنا بحسن الجوار، وصلة الرحم، وبرّ اليتيم، ويأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له.

فقال: اقرأ ما يقرأ عليكم.

فقرأ عليه سورة العنكبوت والروم، ففاضت عين النجاشي وأصحابه من الدمع.

فقال: زدنا من هذا الحديث الطيّب.

فقرأ عليهم سورة الكهف.

فأراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال: إنهم يسبّون عيسى وأُمّه.

فقرأ عليهم جعفر سورة مريم (ع).

فلمّا أتى على ذكر عيسى وأُمه رفع النجاشي نفاثة من سواكه قدر ما يقذى العين فقال: والله ما زاد المسيح على ما يقول هؤلاء نقداً.

ثم التفت إلى جعفر ومن معه من المسلمين وقال لهم: اذهبوا فأنتم سيوم([٢٤]) بأرضي،

---

[٢٤] – السيوم: الآمنون.

من سبّكم غرم، فلا هوادة اليوم على حزب ابراهيم، ما أحب أن لي دَبْرا([٢٥]) من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم.

ثم قال: ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي فيها، فوالله ما أخذ الله منّي الرشوة حين ردّ عليّ ملكي فآخذ الرشوةَ فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه.

فخرجا مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به.

وفي النجاشي وأصحابه ـ حسب بعض التفاسير ـ نزلت: (وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) ([٢٦]).

اسلام النجاشي

ثم ان النجاشي أسلم سراً وآمن بالنبي (ص) خفية وقال: لو قدرتُ أن آتي النبي لأتيته، فكاتبه النبي (ص) في أن يزوّجه أُم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت ممن هاجر إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش، فتنصَّر هناك ومات، فزوّجه إيّاها، وأصدقها عنه أربعمائة دينار، وكان الذي تولّى تزويجها خالد بن سعيد بن العاص، وكتب إليه أن يبعث إليه من بقى من أصحابه ويحملهم ففعل، وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أُمية، وقدموا على رسول الله (ص) حين افتتح خيبر.

ولما مات النجاشي نعاه رسول الله (ص) في اليوم الذي مات فيه وخرج إلى المصلّى فكبّر خمس تكبيرات ثم التفت إلى المسلمين وقال: استغفروا لأخيكم.

قيل: وكان موت النجاشي في رجب سنة تسع هجرية، ولما صلّى عليه رفع إليه سريره بأرض الحبشة حتى رآه بالمدينة، وتكلّم المنافقون وقالوا: يصلّي على علج مات بأرض الحبشة.

إسلام حمزة

ثم أسلم حمزة بن عبدالمطلب وكان سبب اسلامه أنّ أباجهل مرّ برسول الله (ص) فآذاه

---

[٢٥] – الدبر بلسان الحبشة: الجبل.

[٢٦] – المائدة: ٨٣.

وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلّمه رسول الله (ص)، ومولاة لعبدالله بن جُدعان في مسكن لها تسمع ذلك.

ثم انصرف عنه عامداً إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدّث معهم، وكان أعزّ فتى في قريش وأشدّه شكيمةً.

فلما مرّ بالمولاة ـ وقد رجع رسول الله (ص) إلى بيته ـ قالت: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام، وجده ههنا جالساً فآذاه وشتمه وسبّه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلّمه محمد.

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى لم يقف لأحد، معدّاً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلقيه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وتسبّه؟ فأنا على دينه، أقول ما يقول، فردَّ عليّ إن استطعت.

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل.

فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببتُ ابن أخيه سباً قبيحاً.

وتم حمزة على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله (ص)، فعرفت قريش أن رسول الله (ص) قد عزَّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

أبو طالب ومواقفه المشرّفة

فلما رأت قريش ان أمر رسول الله (ص) يتزايد ويقوى، مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أباطالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وإنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

فبعث إلى رسول الله (ص) فقال: يا ابن أخي إن قومك جاءوني وقالوا لي كذا وكذا فما تقول؟

فقال له رسول الله (ص): يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على

أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه.

ثم استعبر رسول الله (ص) فبكى، ثم قام. فلما ولى ناداه أبوطالب فقال: أقبل يابن أخي. فأقبل عليه رسول الله (ص) فقال له: قل يا ابن أخي ما أحببت، فوالله لا اسلمك لشيء أبداً.

مكيَدَة قريش

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أباطالب (ع) قد أبى خذلان رسول الله (ص) وإسلامه له، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك وفرَّق جماعة قومك وسفّه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل كرجل.

فأجابهم أبوطالب قائلاً: والله لبئس ما تسومونني، تعطونني ابنكم اغذيه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لايكون أبداً.

فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف: والله يا أباطالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً؟

فقال: والله ما أنصفتموني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك، فتنابذ القوم وبادى بعضهم بعضاً.

فقال أبوطالب عند ذلك يعرّض بالمطعم ويعم من خذلة من بني عبد مناف ومن عاداه من قبائل قريش ويذكر ما سألوه وما تباعد من أمرهم أبياتاً أولها: (ألاّ قل لعمرو والوليد ومُطعم ألا ليت حظي من حياطتكم بكر).

قريش يتآمرون

ثم إن قريشاً تآمروا بينهم على من في القبائل من أصحاب رسول الله (ص) الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله منهم بعمّه أبي طالب (ع)، وقد قام أبوطالب (ع) حين رأى قريشاً يصنعون مايصنعون في بني هاشم وبني عبدالمطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله (ص)

والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه، إلا ما كان من أبي لهب وولده فإنهم ظاهروا قريشاً على قومهم.

ثم إنهم أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله (ص) علانية، فبلغ ذلك أباطالب، فجمع بني هاشم وبني عبدالمطلب فأدخلوا رسول الله (ص) شعبهم ومنعوه ممّن أراد قتله.

الصحيفة المشؤومة

فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً على بني هاشم وبني عبدالمطلب ألاّ ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوا منهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتّى يسلموا رسول الله (ص) للقتل.

وكتبوه في صحيفة بخط أحدهم، فأُصيبت يد الكاتب بعدها بالشلل، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة.

فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مسلمهم وكافرهم، إلى أبي طالب فدخلوا معه شعبه، فأقاموا على ذلك ثلاث سنين حتى جهدوا وكان لا يصل إليهم شيء إلاّ سرّاً، وقطعت قريش عنهم الأسواق حتى كان يسمع أصوات نسائهم وأبنائهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع، واشتدّوا على من أسلم ممن لم يدخل الشعب، وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديداً.

وكان أبو طالب (ع) إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله (ص) فاضطجع فراشه حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر علياً (ع) أو أحد بنيه أو إخوته أو بني عمّه فاضطجع على فراش رسول الله (ص)، وأمره أن يأتي بعض فرشهم، وفي ذلك أنشأ أبوطالب قصيدته اللامية المشهورة، والتي قال فيها:

(ولما رأيت القوم لا وُدّ فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل)

إلى آخر القصيدة.

نقض الصحيفة

ثم بعد ذلك تألّف قوم من قريش على نقض تلك الصحيفة، كان أحسنهم فيها عناءً هشام بن عمرو بن الحرث، فإنه مشى إلى زهير بن أُمية بن المغيرة وكلّمه في ذلك، وكان زهير

هذا شديد الغيرة على النبي (ص) والمسلمين، وكانت أُمه عاتكة بنت عبدالمطلب، فأجابه زهير إلى نقض الصحيفة.

ثم مشى هشام إلى المطعم بن عدي فذكره أرحام بني هاشم وبني المطلب ابني عبدمناف فأجابه إلى ذلك.

ثم مشى إلى أبي البختري بن هشام فقال له مثل ما قال للمطعم بن عدي.

ثم مشى إلى زمعة بن الأسود فكلّمه وذكر له قرابتهم وحقهم. فقال: وهل معي على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟

قال: نعم، ثم سمى له القوم.

واتعدوا خطم الجحون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا وتعاهدوا على القيام في نقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلّم.

فلما أصبحوا غدوا على أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أُمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة: أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنوهاشم هلكى لايباعون ولا يباع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فقال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد ـ: كذبت والله لاتشق.

قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت.

فقال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقرّ به.

قال المطعم بن عدي: صدقتم وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

قال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، وتُشوورِ فيه بغير هذا المكان.

هذا كله وأبوطالب (ع) يستعدّ للمجيء إلى المسجد، وكان قد أخبره رسول الله (ص): بأن الله قد سلّط الارضة على صحيفتهم فأكلتها إلاّ ما كان من اسم الله تعالى، فلما أخبر النبي (ص) عمه أباطالب بذلك، قال أبوطالب: لا والثواقب ما كذبتني.

فانطلق يمشي بعصابة من بني عبدالمطلب حتى أتى المسجد وهو حافل من قريش، فتكلّم وقال: إنه قد حدث أمر لعله أن يكون بيننا وبينكم صلحاً، فأتوا بصحيفتكم.

وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا فيها قبل أن يأتوا بها.

فأتوا متعجّبين لا يشكّون أن رسول الله (ص) مدفوع إليهم.

قالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد قد جعلتموه خطراً لهلكة قومكم.

فقال أبوطالب: لأعطينكم أمراً لكم فيه نَصَف، إن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني: أن الله بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم ومحا كل غدركم وقطيعتكم إلاّ ما كان من اسم الله تعالى فيها، فإن كان ما قال حقاً، فوالله لانسلمه إليكم حتى نموت عن آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتموه.

قالوا: قد رضينا.

ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما أخبر، لكنهم أصرّوا في غيّهم وعنادهم وقالوا: هذا سحر من صاحبكم.

فتكلّم عند ذلك النفر الذين تعاقدوا، ومزّقت الصحيفة، فلما مزقت وبطل ما فيها أنشأ أبوطالب في ما كان من أمر أُولئك القوم الذين قاموا في نقضها يمدحهم قائلاً:

ألا هل أتى بحرٍّ يرى صنع ربنا***على نأيهم والله بالناس أروَد

إلى آخر الأبيات.

وخرج بنو هاشم من شعبهم وخالطوا الناس، وذلك بعد عشرة أعوام من المبعث الشريف.

عام الحزن

ولما خرج بنو هاشم من الشعب لم يمض عليهم من الزمان إلاّ ستّة أشهر حتى توفي أبوطالب (ع)، ثم توفيت خديجة بعده بثلاثة أيام على قول، فسمّى رسول الله (ص) ذلك العام: عام الحزن.

اشتداد أذى قريش

وبموت أبي طالب (ع) اشتدّ البلاء على رسول الله (ص) من قومه، وتجرّؤا عليه، وكاشفوه بالأذى الشديد، وأرادوا قتله، إلاّ أن الله منعهم منه، وجرّعوه غصصاً كثيرة:

فمنها: ما رواه بعضهم وقال: حضرتهم وقد اجتمعوا في الحجر يذكرون رسول الله (ص)

فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه، سفّه أحلامنا وشتم آباءنا وفرّق جماعتنا، فبينماهم كذلك إذ أقبل رسول الله (ص) فاستلم الركن، فلما مرّ بهم غمزوه، فعرفت ذلك في وجه رسول الله (ص) ثم مضى، فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله (ص) ثم مر بهم الثالثة، فلما كان من الغد اجتمعوا كذلك إذ طلع، فقالوا: قوموا إليه وثبة رجل واحد وهكذا فعلوا.

مع ابن أبي معيط

ومنها: انه قال بعضهم: سألت بعض الصحابة عن أذى قريش للنبي (ص) بعد وفاة عمّه أبي طالب (ع) وقلت له: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله (ص).

قال: بينما النبي (ص) يصلّي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فخنقه خنقاً شديداً.

البنت الوفية

ومنها: ما عن عبدالله بن مسعود قال: كان رسول الله (ص) يصلّي عند الكعبة وجمع من قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي، أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه.

فانبعث أشقاهم، فلما سجد (ص) وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك، وأنا قائم أنظر، ولو كان لي منعه طرحته عن ظهر رسول الله (ص).

فانطلق منطلق إلى فاطمة ، فأقبلت تسعى، وثبت النبي (ص) ساجداً حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تؤنّبهم.

فلما قضى رسول الله (ص) صلاته رفع صوته شاكياً إلى الله ما نزل به وهو يقول: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأُمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد.

قال عبدالله: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر قد غيّرتهم الشمس في يوم حارّ، ثم سحبوا إلى قليب بدر فأُلقوا فيه.

نماذج من أذى قريش

ومنها: انهم كانوا يحضّون سفهائهم لإلقاء التراب على وجهه ورأسه(ص).

ومنها: انهم كانوا يطرحون الفرث والدم والشوك على بابه (ص).

ومنها: ان أُمية بن خلف تجاسر على النبي (ص) في وجهه، فاحمرّ وجه رسول الله (ص) ولم يقل له شيئاً.

مع البنت الحنون

ومنها: انه قال بعضهم: لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله (ص) التراب دخل رسول الله (ص) بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه فاطمة فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله (ص) يقول لها: لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباكِ.

قال: ويقول بين ذلك: ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب.

في ظل الكعبة

ومنها: ما روي عن خباب قال: أتيتُ النبي (ص) وهو متوسّد بردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله؟

فقعد (ص) وهو محمرّ وجهه فقال: لقد كان فيمن كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد مادون عظامه، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الذئب على غنمه.

مع جماعة الأحلاف

ومنها: ما عن عبدالله بن عباس انه قال: اجتمع جماعة من أحلاف الكفار عند غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه من يقول له: ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك فأتهم.

فجاءهم رسول الله (ص) وهو حريص عليهم، يحب رشدهم ويعزّ عليه عنتهم، حتى جلس إليهم.

فقالوا: يا محمد إنّا قد بعثنا إليك لنكلّمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد سببت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فما بقي من قبيح إلاّ قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنتَ تريد ملكاً ملكناك، وإن كان الذي يأتيك رئياً ـ وكانوا يسمون التابع من الجن: رئياً ـ تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك عنه أو نعذر فيك، وإن كنتَ تريد امرأة زوّجناك أجمل بنت في العرب.

فقال لهم رسول الله (ص): ما بي ما تقولون، ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله تعالى بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالات ربّي، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منّا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا، فاسئل ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا: قصي بن كلاب فإنه كان شيخ صدق فنسأله عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول الله (ص): ما بهذا بعثتُ إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أُرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ فأصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فإذا لم تفعل هذا فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك، واما لا، فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضّة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم في الأسواق تلتمس المعاش كما نلتمس، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربّك إن كنتَ رسولاً كما تزعم.

فقال لهم رسول الله (ص): ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربّه، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتّى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمتَ أنّ ربك إن شاء فعل.

قال: فقال رسول الله (ص): ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل.

قالوا: يا محمد، فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك فيعلمك بما تراجعنا به ويخبرك بما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به، إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا، رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لانؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لانتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا.

فقام رسول الله (ص) من عندهم وانصرف إلى أهله حزيناً أسفاً عليهم.

فلما قام عنهم رسول الله (ص) وانصرف، قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمداً قد أبى الا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا، وإني أُعاهد الله لأجلسنّ له غداً بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فلتصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم.

قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبداً فامض لما تريد.

فلما أصبح أبوجهل أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله (ص) ينتظره، وغدا رسول الله (ص) كما كان يغدو، وكان رسول الله (ص) بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلّى، صلّى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام.

فقام رسول الله (ص) يصلّي وقد غدت قريش في أنديتهم فجلسوا فيها ينظرون ما أبوجهل فاعل، فلما سجد رسول الله (ص) احتمل أبوجهل الحجر ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه مرعوباً قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده.

فقامت إليه رجال قريش وقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟

قال: قمتُ إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوتُ عرض لي دونه فحل من الإبل والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فهمَّ بي أن يأكلني.

وروي ان رسول الله (ص) قال: ذاك جبرائيل، ظهر له بهذه الصورة، ولو دنا لأخذه.

فلما قال ذلك لهم أبوجهل قام النضر بن الحارث بن كلدة فقال:

يا معشر قريش! والله لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمّد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، قد رأينا السحرة نفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة تخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه. يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم.

الحرب الثقافية ضد القرآن

وكان النضر هذا من قريش، وممّن كان يؤذي رسول الله (ص) وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله (ص) مجلساً فذكّر فيه بالله، وحذَّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأُمم من نقمة الله، خلّفه في مجلسه إذا قام، وقال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم فأنا أُحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا كان أحسن حديثاً منّي؟

قالوا: وهو الذي قال: سأُنزل مثل ما أنزل الله.

وفد المشركين إلى أحبار المدينة

ثم انهم بعثوا النضر بن الحارث وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلاهم عن محمّد، وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من الأنبياء.

فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله (ص) ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله وقالا لهم: انكم أهل التوراة قد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقالت لهما أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل،

وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فروا فيه رأيكم:

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجب.

وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه.

وسلوه عن الروح ما هي؟

فإذا أخبركم بذلك فاتّبعوه فإنه نبيّ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط بن عمرو بن أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف حتى قدما مكة على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمّد، قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم بها فهو نبيّ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فروا فيه رأيكم.

فجاءوا رسول الله (ص) فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كان لهم قصّة عجب، وعن رجل كان طوّافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟

فقال لهم رسول الله (ص): أُخبركم بما سألتم عنه غداً.

فجاء جبريل من الله بسورة الكهف، وفيها ما سألوه عنه: من أمر الفتية، والرجل الطوّاف، والروح.

مع رؤوس الشرك

روي أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شُريق الثقفي حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا القرآن من رسول الله (ص) وهو يصلّي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لايعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لاتعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في قلبه شيئاً، ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع

الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد على أن لانعود، ثم تعاهدوا على ذلك ثم تفرّقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمّد.

فقال: يا أبا ثعلبة لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها.

قال الأخنس: وأنا كذلك، والذي حلفت به، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان. قالوا: منّا نبيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لانؤمن به أبداً ولا نصدّقه، فقام عنه الأخنس وتركه.

تخطيط الوليد ضد القرآن

ثم ان الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سنّ فيهم وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضه بعضاً.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به.

قال: بل أنتم قولوا وأسمع.

قالوا: نقول كاهن.

قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما

هو بالشعر.

قالوا: نقول ساحر.

قال: وما هو بساحر، لقد رأينا السحرة وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده.

قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله حلاوة، وان عليه لطلاوة، وان اعلاه لمثمر، وان أسفله لمعذق، وانه ليعلو وما يعلى عليه، وما أنتم بقائلين من قولكم ذلك شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر، يفرق بين المرء وابنه، وبين المرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه بذلك وجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذّروه إياه وذكروا لهم أمره، فأنزل الله سبحانه في الوليد بن المغيرة قوله تعالى: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً) ([٢٧]) إلى قوله تعالى: (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) ([٢٨]).

الوليد برواية أُخرى

وعن ابن عباس: ان الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله (ص) فقال: اقرأ عليّ. فقرأ عليه: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسانِ) ([٢٩]) إلى آخر الآية.

قال: أعد. فأعاد عليه.

قال: والله إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمعذق، وما يقول هذا بشر.

فبلغ ذلك أباجهل فأتاه فقال: يا عم، إنّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً.

قال: ولِمَ؟

قال: أتيت محمداً لتعرض مما قبله.

قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له.

---

[٢٧] – المدّثر: ١١.

[٢٨] – المدّثر: ٢٦.

[٢٩] – النحل: ٩٠.

قال: ماذا أقول؟ ثم قال: انه سحر، فنزلت فيه الآيات.

مع العتبة بن ربيعة

عن جابر بن عبدالله قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي قد فرَّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يردّ عليه.

فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد.

فأتاه عتبة فقال: يا محمد، أنت خير أم عبدالله؟ فسكت رسول الله (ص).

فقال: أنت خير أم عبدالمطلب؟ فسكت رسول الله.

قال: فإن كنت تزعم ان هؤلاء خير منك فإنهم لم يظهروا كلاماً، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، ثم أردف قائلاً:

إنّا والله ما رأينا شخصاً قط أشأم على قومه منك، فرقت جماعتنا، وشتّتّ أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، لقد طار فيهم: ان في قريش ساحراً، وان في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى. أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أيّ نساء قريش شئتَ فلنزوّجك عشراً.

فقال رسول الله (ص): فرغتَ؟

قال: نعم.

فقال رسول الله (ص): (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) ([30]) حتى بلغ (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ) ([31]) وحينئذ أمسك عتبة على فيه (ص) وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم.

فقال أبوجهل: يا معشر قريش، والله لانرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذلك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه.

---

[30] – فصّلت: ١ ـ ٢.

[31] – فصلّت: ١٣.

فانطلقوا إليه فقال أبوجهل: يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد، وأعجبك طعامه، فإن كان لك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما نغنيك عن طعام محمد.

فغضب غضبة وأقسم: أن لا يكلّم محمداً أبداً وقال: والله إني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة، فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ) ([٣٢]) فأمسكتُ بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب.

وفي رواية: ثم مضى رسول الله (ص) فيها يقرؤها عليه، فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله(ص) إلى السجدة منها فسجد ثم قال (ص): قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

مع المستهزئين

كان هناك جماعة يستهزؤون برسول الله (ص)، فأنزل الله فيهم آيات يذمّهم بها، ويحذّرهم فيها عاقبة أمرهم، ويتوعّدهم العذاب والنار.

منهم: عمه أبولهب، وامرأته أُم جميل بنت حرب بن أُمية حمّالة الحطب.

---

[٣٢] – فصّلت: ١٣.

سماها الله حمّالة الحطب لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله (ص) حيث يمر، فأنزل الله تعالى فيهما: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ، ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ، سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ، فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) ([٣٣]).

وقد كانت تمشي بالنميمة، وتنقل الحديث، وتلقي العداوة بين الناس، وتوقد ناراً كما توقد النار بالحطب.

ثم ان أُم جميل حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله(ص) وهو جالس في المسجد عند الكعبة، وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليه أخذ الله ببصرها عن رسول الله (ص) فلم تره، لكنها قالت: قد بلغني انه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم أنشأت تقول:

(مذمماً عصينا) (وأمرَه أبينا) (ودينه قلينا).

ثم انصرفت.

قال (ص): ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عنّي.

وقد كانت قريش تسمّي رسول الله (ص) مذمّما، يسبّونه به، وكان رسول الله (ص) يقول: ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قريش؟ يسبون ويهجون مذمماً، وأنا محمد.

ويل لكلّ هُمَزَة

ومنهم: أُمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمح، كان إذا رأى النبي (ص) همزه ولمزه، فأنزل الله فيه: (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) ([٣٤]) إلى آخر السورة.

و(الهُمَزة): الذي يشتم الرجل علانية ويكسر عينه عليه ويغمز به، وجمعه همزات.

و(اللُمَزة): الذي يعيب الناس سرّاً ويؤذيهم.

---

[٣٣] – المسد: ١ . ٥.

[٣٤] – الهمزة: ١.

الكافر بآيات الله

ومنهم: العاص بن وائل السهمي، فعن الخبّاب بن الأرتّ صاحب رسول الله (ص) انه قال: كنت قيناً بمكة، فعملت للعاص بن وائل السهمي، فجئت أتقاضاه، فقال: لا أُعطيك حتى تكفر بمحمد (ص).

فقلت: لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ثم يحييك.

قال: إذا أماتني الله ثم بعثني بعثني ولي مال وولد، فأنزل الله تعالى: (أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً) ([٣٥]) إلى قوله تعالى: (وَيَأْتِينا فَرْداً) ([٣٦]).

الإنسان الطاغي

ومنهم: أبو جهل فإنّه سأل قومه يوماً وقال: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟

فقيل: نعم.

فقال: واللات والعُزّى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ رقبته ولأُعفرنّ وجهه في التراب.

قال الراوي: فأتى رسول الله (ص) وهو يصلي، فزعم ليطأ على رقبته، فما فجئهم منه إلاّ وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه.

فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟

قال: انّ بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة.

فقال رسول الله (ص): (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)، فأنزل الله فيه: (كَلاَّ إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى) ([٣٧]).

الأفّاك الأثيم

ومنهم: النضر بن الحارث، فإنه كان إذا جلس رسول الله (ص) مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذّر قريشاً ما أصاب الأُمم الخالية، خلّفه النضر بن الحارث في مجلسه إذا قام فحدّثهم عن رستم وإسفنديار وملوك فارس ثم يقول: والله ما محمد بأحسن

---

[٣٥] – مريم: ٧٧.

[٣٦] – مريم: ٨٠.

[٣٧] – العلق: ٦ . ٧.

حديثاً منّي، وما حديثه إلاّ أساطير الأولين أكتتبها.

فأنزل الله فيه: (وَقالُوا أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ) ([٣٨]).

ونزل فيه: (إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ) ([٣٩])

ونزل فيه: (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عَلَيْهِ) ([٤٠]) إلى قوله (فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ) ([٤١]).

حصب جهنم

ومنهم: ابن الزبعري، وذلك ان رسول الله (ص) جلس يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله (ص)، فعرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول الله (ص) حتى أفحمه، ثم تلا عليه: (إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ) ([٤٢]).

ثم قام رسول الله (ص) وأقبل عبد الله بن الزّبعري السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبدالله بن الزبعري: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصبُ جهنم.

فقال عبد الله بن الزبعري: أما والله لو وجدته لخصمته، فاسألوا محمداً أكلّ ما يعبدون من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود يعبدون عزيراً، والنصارى يعبدون عيسى بن مريم.

فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قوله، ورأوا أنه قد احتج وخاصم.

فذكر ذلك لرسول الله (ص)، فقال رسول الله (ص): كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم الشياطين بعبادته، فأنزل الله

---

[٣٨] – الفرقان: ٥ . ٦.

[٣٩] – القلم: ١٥.

[٤٠] – الجاثية: ٧ . ٨.

[٤١] – لقمان: ٧.

[٤٢] – الأنبياء: ٩٨.

عليه: (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ) ([٤٣]).

ونزل في ماذكر من أمر عيسى بن مريم (ع) وأنه يُعبد من دون الله: (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) ([٤٤]) أي يصيحون فرحاً لزعمهم بأنّ الرسول (ص) قد انقطع به.

ثم ذكر عيسى فقال: (إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ) ([٤٥]) إلى قوله: (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها) ([٤٦]).

وفي رواية: ان رسول الله (ص) قال له: ما أجهلك بلسان قومك، (ما) لما لا يعقل، أي: فلا يشمل الملائكة وعزيراً والمسيح (عليهم السلام).

عظيما القريتين

ومنهم: الوليد بن المغيرة فإنه قال: أينزّل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيّدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف؟ فنحن عظيما مكة والطائف القريتين.

فأنزل الله تعالى في ذلك: (وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ، أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ) ([٤٧]).

الظالم وخليله

ومنهم: عقبة بن أبي معيط، وأُبيّ بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمح، كانا متصافيين حسناً ما بينهما، فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله (ص) وسمع منه. فبلغ ذلك أُبياً، فأتى عقبة فقال له: ألم يبلغني عنك أنّك جالست محمداً وسمعت منه؟ ثم قال: وجهي من وجهك حرام أن أكلمك . واستغلظ من اليمين . إن انت جالست محمداً وسمعت منه، أو لم تأته فتتجاسر عليه في وجهه. ففعل ذلك عقبة، فأنزل الله فيهما:

---

[٤٣] – الأنبياء: ١٠١.

[٤٤] – الزخرف: ٥٧.

[٤٥] – الزخرف: ٥٩.

[٤٦] – الزخرف: ٦١.

[٤٧] – الزخرف: ٣١.

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) ([٤٨]) إلى قوله: (وَكانَ الشَّيْطانُ لِلإِنْسانِ خَذُولاً) ([٤٩]).

صاحب المثل

ومنهم: أُبيّ بن خلف، فإنّه مشى إلى رسول الله (ص) بعظم بال قد أرفت فقال: يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرى؟ ثم فته في يده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله (ص).

فقال رسول الله (ص): أنا أقول ذلك، فأنزل الله فيه:

(وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) ([٥٠]).

لا للحل الوسط

ومنهم: الأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأُبيّ بن خلف، والعاص بن وائل السهمي، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فاعترضوا رسول الله (ص) وهو يطوف بالكعبة فقالوا: يا محمد، هلُم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه. فأنزل الله فيهم:

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ، لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ، وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ، وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ، وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) ([٥١]).

---

[٤٨] – الفرقان: ٢٧.

[٤٩] – الفرقان: ٢٩.

[٥٠] – يس: ٧٨ . ٧٩.

[٥١] – الكافرون: ١ . ٦.

طعام الأثيم

ومنهم: أبو جهل بن هشام حيث قال يوماً: يا معشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟

قالوا: لا.

قال: عجوة يثرب بالزبد، والله لئن استمكنّا منها لنترقمنها تزقماً، فأنزل الله فيه: (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ، طَعامُ الأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ) ([٥٢]) أي ليس كما يقول.

مع الملأ من قريش

ومنهم: الملأ من قريش، فإنهم كانوا يستهزئون برسول الله (ص) إذا جلس في المسجد، وجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خبّاب، وعمّار، وأبو فكيهة، ويسار مولى صفوان بن أُمية، وصهيب، وأشباههم من المسلمين.

وكان بعضهم يقول لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهولاء منّ الله عليهم بالهدى من بيننا؟ لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصّهم الله به؟

وكانوا كلما مرّوا على رسول الله (ص) ووجدوا عنده خبّاباً وصهيباً وبلالاً. قالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء عن قومك؟

فانزل الله تعالى فيهم: (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ) ([٥٣]) إلى قوله: (وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) ([٥٤]).

وفي رواية قالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء عن قومك؟ أهؤلاء منّ الله عليهم بالهدى من بيننا، فنحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم، فذاك أحرى إن طردتهم أن نتبعك، فنزل: (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ) ([٥٥]).

---

[٥٢] – الدخان: ٤٣ . ٤٦.

[٥٣] – الأنعام: ٥٨.

[٥٤] – الأنعام: ٥١.

[٥٥] – الأنعام: ٥٢.

اتهامات واهية

ومنهم: جماعة من قريش فانهم لما رأوا رسول الله (ص) يمرّ أحياناً عند المروة على مبيعة غلام نصراني اسمه: (جبر) وكان عبداً لبني الحضرمي، فيعرض عليه الاسلام، ويدعوه إلى الله، كانوا ينتهزونه فرصة لكيل التهم على رسول الله (ص) فكانوا يقولون: والله ما يعلّم محمداً كثيراً مما يأتي به إلاّ (جبر) النصراني غلام بني الحضرمي.

فأنزل الله في ذلك: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) ([٥٦]) يلحدون أي: يميلون، فإن الإلحاد الميل.

الشماتة بالرسول (ص)

ومنهم: العاص بن وائل السهمي، فانه كان إذا ذكر رسول الله (ص) قال: دعوه فانما هو رجل أبتر لا عقب له، لو قد مات لانقطع ذكره واسترحتم منه. فأنزل الله في ذلك: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ، إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) ([٥٧]).

و(الكوثر) الخير الكثير، والمراد من الكوثر: فاطمة الزهراء (ع) بنت رسول الله (ص)، حيث كان منها نسل رسول الله (ص) إلى يوم القيامة، كما جاء في بعض الروايات.

وعن أنس قال: سمعت رسول الله (ص) وقد قيل له: يا رسول الله ما الكوثر الذي أعطاك الله؟

قال: نهر كما بين صنعاء إلي أيلة، آنيته كعدد نجوم السماء.

ولا مانع من ان يكون المراد كل ذلك.

مع ركانة

ومنهم: ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف وكان أشد قريش، قيل: انه التقى برسول الله (ص) في بعض شعاب مكة، فقال له رسول الله (ص): يا ركانة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه؟

---

[٥٦] – النحل: ١٠٣.

[٥٧] – الكوثر: ١ ـ ٣.

قال: إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك.

فقال له رسول الله (ص): أفرأيت إن صرعتك تعلم أن ما أقول حق؟

قال: فهلم حتى أصارعك.

فقام اليه ركانة يصارعه، فلما بطش به رسول الله (ص) أضجعه لا يملك من نفسه.

ثم قال: عد يا محمد. فأعاد، فصرعه. فقال: والله يا محمد إن هذا للعجب، أتصرعني؟

قال رسول الله (ص): وأعجب من ذلك إن شئت أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمري.

قال: وما هو؟

قال: أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني.

قال: ادعها.

فدعاها، فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله (ص). فقال لها: ارجعي إلى مكانك. فرجعت إلى مكانها.

فلما رأى ركانة ذلك ذهب إلى قومه فقال: يا بني عبد مناف، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض، فوالله ما رأيت أسحر منه قط. ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع.

اصطحاب الملائكة

ومنهم: زمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، والأسود بن عبد يغوث، وأُبيّ بن خلف، والعاص بن وائل، فانهم كانوا كلما عرض رسول الله (ص) الإسلام على قومه وكلّمهم فابلغ إليهم، قالوا له: لو جعل معك يا محمد ملك يحدّث عنك الناس ويرى معك؟

فأنزل الله في ذلك: (وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ) ([٥٨]) إلى قوله تعالى: (ما يَلْبِسُونَ) ([٥٩]).

مع الهمّازين

ومنهم: الوليد بن المغيرة وأُمية بن خلف وأبو جهل بن هشام، فإنهم كانوا كلما مرّ رسول الله (ص) بهم غمزوه واستهزءوا به، فأنزل الله عليه في أمرهم: (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ

---

[٥٨] – الأنعام: ٨.

[٥٩] – الأنعام: ٩.

فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) ([٦٠]).

أشد من يوم أُحد

ومنهم: ابن عبد ياليل بن عبد كلاب، فانه روى عن إحدى نساء النبي (ص) أنها قالت: قلت للنبي (ص): هل أتى عليك يوم أشد عليك من يوم أُحد؟

فقال (ص): لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلاب فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت على وجهي وأنا مهموم، فلم أربي إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني فإذا فيها جبرئيل فناداني فقال: ان الله سمع قول قومك وما ردوا عليك وقد بعث اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ وقال: ان الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعثني إليك لتأمرني بما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين.

فقلت: أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً.

رؤوس المستهزئين

لقد عذب الله طائفة ممن كذّب رسول الله (ص) بأنواع من العذاب كالمستهزئين الذين قال الله فيهم: (إنّا كفيناك المستهزئين) فعذب كل واحد منهم بعذاب معروف.

كعتيبة بن أبي لهب. فإن أبا لهب لما عادى النبي (ص) أمر ابنيه أن يطلقا ابنتي النبي (ص) رقية وأُم كلثوم([٦١])، وقال عتيبة لرسول الله (ص): كفرت بدينك وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أُحبك، ثم تسلط عليه بالأذى وشق قميصه.

ثم إن عتيبة خرج بعد ذلك في نفر من قريش حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء، ليلاً، فطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويل أخي، هو والله آكلي، فعدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه.

---

[٦٠] – الأنعام: ١٠.

[٦١] – على بعض الروايات.

ومن الوقائع المذكورة: انه قدم على رسول الله (ص) وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد الحرام، فجلسوا إليه فكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة.

فلما فرغوا من مسألة رسول الله (ص) عما أرادوا، دعاهم رسول الله (ص) وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره.

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش وقال لهم: خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من اهل دينكم ترتادون لهم وتأتونهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أحمق منكم؟

فأجابوه: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً.

فنزل فيهم قوله تعالى: (الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ) ([٦٢]) إلى قوله سبحانه: (سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ) ([٦٣]).

مع شاعر الجاهلية: الأعشى بن قيس

واسم الأعشى ميمون قيل: إنه خرج إلى رسول الله (ص) يريد الإسلام، فقال يمدح رسول الله (ص) في قصيدة منها:

وآليت لا أرى لها من كلالة***ولا من حفى حتى تلاقي محمداً

متى ما تناخي عند باب ابن هاشم***تراحى وتلقى من فواضله ندى

نبي يرى ما لا يرون وذكره***أغار لعمري في البلاد وأنجدا

له صدقات ما تغب ونائل***وليس عطاء اليوم مانعه غداً

فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره، فأخبره أنه

---

[٦٢] – القصص: ٥٢.

[٦٣] – القصص: ٥٥.

جاء يريد رسول الله (ص) ليسلم.

فقال له: يا أبا بصير أنه يحرّم الزنا.

فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمر مالي فيه من أرب.

فقال له: يا أبا بصير فانه يحرم الخمر.

فقال الأعشى: اما هذه فوالله ان في النفس منها لعلالات، ولكني منصرف لأتروى منها عامي هذا. ثم آتيه فأُسلم. فانصرف فمات من عامه ذلك، ولم يعد إلى رسول الله (ص).

رحلة إلى الطائف

ولما اشتد البلاء من قريش على رسول الله (ص) بعد موت عمه أبي طالب (ع) .كما تقدم . وعانى من سفهاء قومه ما عاناه حيث قد تجرأوا عليه وكاشفوه بالأذى ما لم يكاشفوه به من قبل، خرج (ص) إلى الطائف، ورجا أن يؤووه وينصروه على قومه، ويمنعوه منهم.

فلما وصلها اجتمع (ص) بهم في ناديهم ودعاهم إلى الله، فلم ير فيهم من يجيبه أو يؤويه وينصره، ونالوه مع ذلك بأشد الأذى ونالوا منه ما لم ينل قومه.

وكان معه (ص) زيد بن حارثة مولاه، فأقام بينهم في الطائف عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلاّ جاءه وكلمه.

فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم، فأخذ هؤلاء السفهاء يرجمون عراقيبه (ص) بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء، وكان إذا أذلقته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذونه بعضديه ويقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى لقد شج في رأسه شجاجاً، وما زالوا به حتى الجأوه إلى حائط لابني ربيعة: عتبة وشيبة، فعمد إلى الظل وانصرف عنه السفهاء، فأخذ (ص) يناجي ربه ويدعوه بالدعاء المأثور:

(اللهم إني أشكو إليك ضعف قوّتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين، ورب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى عدوّ بعيد يتجهمني، أو إلى عدوّ ملّكته أمري، ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلاّ بك).

فلما رآه ابنا ربيعة ورأيا ما لقي (ص) من ثقيف تحركت له رحمهما، فبعثا إليه مع

غلامهما عدّاس النصراني قطفاً من عنب، فلما وضع (ص) يده في القطف قال: بسم الله، ثم أكل.

ثم نظر عداس إلى وجهه وقال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة.

فقال له (ص): من أي البلاد أنت، وما دينك؟

قال: نصراني من أهل نينوى.

قال: من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى؟

قال عداس: وما يدريك؟

قال: ذاك أخي، وهو نبي مثلي.

فأكب عداس على يديه ورأسه يقبلهما.

فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس مالك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

قال: يا سيدي ما في الأرض خير من هذا، فقد أخبرني ما لا يعلمه إلاّ نبي.

قالا: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

ثم إن إبني ربيعة نهرا رسول الله (ص) من ان يستظل بظل بستانهما غيظاً وحنقاً منهما عليه، فخرج رسول الله (ص) من الطائف متجهاً إلى مكة.

في منزل نخلة

ولما نزل رسول الله (ص) بنخلة في مرجعه من الطائف قام يصلّي في جوف اللّيل، فصرف الله إليه نفراً من الجنّ فاستمعوا قراءته، وكانوا من أهل نصيبين.

فلما فرغ (ص) من الصلاة ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا به وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه فقال تعالى: (وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) ([٦٤]).

وأقام رسول الله (ص) بنخلة أياماً، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعني قريشاً.

فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر دينه.

---

[٦٤] – الأحقاف: ٢٩.

ثم انتهى (ص) إلى مكة، فأرسل . على قول . رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدي ليقول له: أدخل في جوارك؟

فقال: نعم. ودعا بنيه وقومه فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمداً.

فدخل رسول الله (ص) ومعه زيد بن حارثة، حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمداً، فلا يهيجه منكم أحد. فانتهى رسول الله (ص) إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته والمطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل (ص) بيته.

العودة إلى مكة

وفي مكة عاد رسول الله (ص) إلى تبليغ رسالات ربّه كما كان عليه من قبل، فكان (ص) يقف بالموسم على القبائل ويتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وذي المجاز.

وكان (ص) لا يسمع بقادم من العرب له اسم وشرف إلاّ كان يأتيه ويعرض عليهم الاسلام وخلفه أبو لهب فيقول: لا تطيعوه فإنه كذاب، ثم يرميه بالحجارة.

لكن ذلك لم يكن صاداً رسول الله (ص) عن مهمّته ولا كافاً له عن ابلاغ رسالته وانما كان مجداً في مواصلة طريقه حتى أسلم جماعة كان منهم: (الطفيل بن عمرو الدوسي) فإنه أسلم ودعا قومه إلى الإسلام، فأسلم بعض قومه، فأقام الطفيل في بلاده إلى أن هاجر بعد عام الخندق هو وجماعة ما بين السبعين والثمانين بيتاً من قومه إلى المدينة فوافوا رسول الله (ص) بخيبر.

ثم إن الطفيل كان عند رسول الله (ص) بالمدينة حتى قبض الله رسوله (ص)، فخرج بعدها مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن الطفيل فقُتل هو باليمامة، وجرح ابنه جراحةً شديدة، ثم استبسل فيها ثم قُتل عام اليرموك.

فصل

في معراجه (ص)

رحلة إلى السماء

ومن القضايا التي اتفقت لرسول الله (ص) في مكة: قضية (المعراج) وذلك على ما نطق به القرآن الكريم، فلقد أُسري به (ص) ليلاً بجسده الشريف وفي حال اليقظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو: بيت المقدس، راكباً على مركب أعدّه له جبرائيل بأمر من الله تعالى يقال له: البراق.

وذلك بصحبة جبرائيل حيث نزل به بطيبة في طريقه إلى المسجد الأقصى فصلى فيها رسول الله (ص) فقال له جبرائيل: هذه طيبة واليها مهاجرتك، ثم نزل به بطور سيناء، فصلى فيها فقال له جبرائيل: هذه طور سيناء حيث كلّم الله موسى تكليماً، ثم نزل به بعد ذلك ببيت لحم فصلى فيها فقال له جبرائيل: هذه بيت لحم حيث ولد عيسى بن مريم . على رواية .، ثم انتهى به إلى بيت المقدس فنزل هناك، وربط رسول الله (ص) البراق بالحلقة.

ثم التقى (ص) بالأنبياء (عليهم السلام) حيث رآهم قد اجتمعوا إليه هناك، وأُقيمت الصلاة، فأذّن جبرائيل وأقام وقال فيهما: حيّ على خير العمل([٦٥])، ثمّ أخذ بعضد رسول الله (ص) وقدّمه للصلاة، فصلّى (ص) بالأنبياء (عليهم السلام) إماماً.

ثم سرى به في تلك اللّيلة من بيت المقدس إلى مسجد الكوفة حيث صلّى هناك أيضاً.

ثم عرج منه بصحبة جبرئيل إلى السماوات، فرأى مكتوباً على باب كل سماء، وعلى كلّ حجاب من حجب النور، وعلى كل ركن من أركان العرش: (لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين) ([٦٦]).

فلمّا بلغ إلى سماء الدنيا استفتح له جبرئيل، ففتح لهما، فرأى هناك آدم (ع) أباالبشر، فسلّم عليه، فرحّب به وردّ عليه السلام، وأقرَّ بنبوّته (ص) وولاية علي بن أبي طالب (ع)

---

[٦٥] – راجع بحار الأنوار: ١٠ / ١٦٢ ب ١٢ ح ١٣ ط بيروت.

[٦٦] – راجع بحار الأنوار: ١١ / ١٦٥ ب ٣ ح ٩ ط بيروت.

.([٦٧])

ثم عرج به إلى السماء الثانية، فرأى فيها يحيى بن زكريّا وعيسى بن مريم فسلّم عليهما، فردّا عليه، السلام ورحّبا به وأقرّا بنبوّته (ص) وولاية علي بن أبي طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف الصدّيق (ع)، فسلّم عليه فرحّب به وأقرّ بنبوّته (ص) وولاية علي بن أبي طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس (ع)، فسلّم عليه فرحّب به وأقرّ بنبوّته (ص) وولاية عليّ بن أبي طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فلقي فيها هارون بن عمران (ع) فسلم عليه فرحب به، وأقرّ بنبوّته (ص) وولاية علي بن أبي طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقي فيها موسى (ع)، فسلم عليه فرحب به وأقرّ بنبوّته وولاية علي بن أبي طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقي فيها إبراهيم (ع)، فسلّم عليه فرحب به وأقرّ بنبوّته (ص) وولاية علي بن أبي طالب (ع).

ثم رفع (ص) إلى البيت المعمور، فحضرت الصلاة، فأذّن جبرائيل وأقام، ثم صلّى (ص) بالنبيّين والملائكة إماماً.

ثم رفع إلى سدرة المنتهى وفيها نودي: استوص بعلي (ع) خيراً فإنه سيّد المسلمين، وإمام المتقين، وقائد الغرّ المحجّلين يوم القيامة.

ثم رفع إلى حُجُب النور وخلّى عنه جبرائيل.

فقال له (ص): تخلّيني على هذه الحالة؟

فقال: امضه فوالله لقد وطئت مكاناً ما وطئه أحد قبلك.

ثم رفع (ص) إلى حجاب الجلال، فدنا من ربّه دنوّاً معنوياً، لأنّ الله ليس بجسم وليس له مكان، فناجاه ربّه، فكان ممّا ناجاه به: (بك وبعليّ وبالائمّة من وُلده أرحم عبادي وإمائي،

---

[٦٧] – كنز الفوائد: ٢ / ١٣٩ ط قم، ١٤١٠ هـ وفيه: (عن النبي (ص): (ليلة أسري بي إلى السماء أوحى الله عز وجل إليّ أن سل من أرسل من قبلك من رسلنا على ما بعثوا؟ فقلت لهم: على ما بعثتم؟ فقالوا: على نبوّتك وولاية علي بن أبي طالب والأئمة منكما).

وبالقائم منكم أُعمر أرضي...) ([٦٨]).

ثم ـ على رواية ـ فرض عليه (ص) وعلى أُمَّته خمسين صلاة، فرجع حتى مرَّ على إبراهيم (ع)، فلم يقل له شيء فمرّ حتّى أتى موسى (ع). فقال: بما أُمِرت؟

قال (ص): بخمسين صلاة.

فقال: إنَّ أُمَّتك لا يطيقون ذلك، ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف لأُمَّتك.

فالتفت إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار أن نعم إن شئت. فرجع يسأل ربّه التخفيف على أُمَّته، ولم يزل يتردَّد بين موسى وبين ربّه تعالى حتّى جعلها خمس صلوات.

ثم ناداه مناد وهو يقول: فهذه الخمس بخمسين.

هذا، ولا يخفى ان النبي (ص) انما لم يسأل ربه التخفيف، لأنّه (ص) كان لايقترح على ربّه عزّوجل ولا يراجعه في شيء يأمره به. فلمّا سأله موسى (ع) ذلك وصار شفيعاً لأُمّته إليه، لم يرد شفاعته، فرجع وسأل ربّه التخفيف.

وفيه أيضاً: اظهار لفضل موسى (ع) فقد دعا له أبو عبدالله (ع) وقال: (جزى الله موسى عن هذه الأُمَّة خيراً).

وفيه أيضاً: اظهار لفضله (ص) وتقرّبه عند الله عزّوجل.

المشركون وأنباء الرحلة

فلما أصبح رسول الله (ص) في قومه أخبرهم بمعراجه وبما أراه الله من آياته الكبري واذ يحدثهم بانه اتى بيت المقدس ورجع من ليلته، وان آية ذلك انه مرّ بعير لأبي سفيان على ماء لبني فلان وقد اضلّوا جملاً لهم أحمر، وقد همّ القوم في طلبه.

فاشتد تكذيب القوم له وأذاهم، ومرّ به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزيء هل كان من شيء؟

قال (ص): نعم.

قال: وما هو؟

قال: أُسري بي الليلة.

---

[٦٨] – راجع أمالي الصدوق: ٥٠٤ ح ٤ المجلس ٩٢ وفيه: (بك وبه وبالأئمة من ولده. وبالقائم).

قال: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قال: ثم اصبحت بين ظهرانينا؟

قال: نعم.

قال: إن دعوت قومك اتحدثهم بما حدثتني به؟

قال: نعم.

قال: يا معشر بني كعب بن لؤي. فانقضت اليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما. فقال: حدّث قومك بما حدثتني.

فقال رسول الله (ص): إني اَسُري بي الليلة.

قالوا: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال: نعم.

فمن بين مصعق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً. فقال المطعم بن عدي: كل أمرك قبل اليوم كان تماماً غير قولك هذا، أنا أشهد انك كاذب. نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدراً شهراً، تزعم أنك أتيته في ليلة! واللات والعُزّى لا أُصدّقك.

فقالوا: يا محمد، صف لنا بيت المقدس كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل؟ وفي القوم من سافر إليه.

فذهب (ص) ينعت لهم: بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا، فما زال ينعت لهم.

فقالوا: كم للمسجد من باب؟

فجاء جبرئيل فقال: يا رسول الله انظر ههنا، فنظر إلى بيت المقدس وقد انكشف له فأخذ (ص) يعدّ لهم أبوابها باباً باباً.

فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب.

ثم قالوا له: أخبرنا عن عيرنا وعن قدومها، فأخبرهم عنها في مسراه ورجوعه، وأخبرهم

عن وقت قدومها، وعن البعير الذي يقدمها. وكان الأمر كما قال. فرموه بالسحر ولم يؤمن منهم إلاّ قليل، وهو قول الله تبارك وتعالى: (وَما تُغْنِي الآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) ([٦٩]).

لا لليأس والخيبة

لقد مرّ أنّ رسول الله (ص) أقام بمكة ثلاث سنين من أوّل نبوته يبلّغ رسالات ربه إلى خاصته، ثم أجهر بها في الرابعة، وأخذ يبلّغ رسالة ربّه إلى الناس كافة وفي كل مكان، وبكل الطرق وذلك مدة عشر سنين، حتى إنه كان في السنين الأخيرة ليسأل عن القبائل ويأتي في المواسم منازلها قبيلة قبيلة ويقول: يا أيها الناس، قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم، وتكونون ملوكاً فاذا متم كنتم ملوكاً في الجنة.

وأبو لهب وجماعته وراءه يقولون: لا تطيعوه فإنه كذاب. فيردون على رسول الله (ص) أقبح ردّ ويؤذونه ويقولون: أُسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك.

فكان ممّن أتاهم رسول الله (ص) وبلّغهم رسالات ربه فلم يقبلوها: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة وغسان ومرة وحنيفة وسليم وعبس وبنو نصر وبنو البكاء وكندة وكلب والحارث بن كعب وعُذرة والحضارمة وغيرهم فلم يستجب منهم أحد.

الالتقاء بوفد اليمامة

وذات مرة اقبل رسول الله (ص) ومعه علي (ع) إلى مجلس من مجالس العرب، فدعاهم إلى دينه فقال أحدهم واسمه مفروق: وإلى م تدعو يا أخا قريش؟

فقال رسول الله (ص): (قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ([٧٠]).

---

[٦٩] – يونس: ١٠١.

[٧٠] – الأنعام: ١٥١.

قال مفروق: ما هذا من كلام اهل الأرض ولو كان من كلامهم عرفناه ثم قال: وإلى م تدعو أيضاً يا أخا قريش؟

فتلا رسول الله (ص): (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ([٧١]).

فقال مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك.

وكأنه أراد أن يشرك في الكلام هانئ ابن قبيصة فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

فقال هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لوهنٌ في الرأي وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر.

وكأنه أحب أن يشرك في الكلام المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا.

فقال المثنى: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا إياك في مجلس جلسته الينا ليس له أول ولا آخر، وإنا إنما نزلنا بين صريان اليمامة والسماوة.

فقال رسول الله (ص): ما هذان الصريان؟

فقال: أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، وأما ما كان من مياه العرب فذنبه مغفور وعذره مقبول، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، لا نحدث حدثاً ولا نؤوي محدثاً وإني أرى أنّ هذا الأمر مما تكرهه الملوك، فان أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا.

فقال رسول الله (ص): ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، فان دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلاّ قليلا حتى يورثكم الله ارضهم وديارهم،

---

[٧١] – النحل: ٩٠.

أتسبّحون الله وتقدّسونه؟

فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذا.

فتلا رسول الله (ص): (يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) ثم نهض النبي فأخذ بيدي علي (ع) ينهضه وقال: إنها أخلاق في الجاهلية ما أشرفها، بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم.

مع رهط من الخزرج

وفي السنة الحادية عشرة من البعثة النبويّة الشريفة خرج رسول الله (ص) على ما دأب عليه إلى الموسم فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل مرة، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً، فلما لقيهم رسول الله (ص) قال: من أنتم؟

قالوا: نفر من الخزرج.

قال: أمن موالي اليهود؟

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أُكلمكم؟

قالوا: بلى. فجلسوا معه، فبلّغهم رسالات الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان مما صنع الله به في الإسلام أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: ان نبياً مبعوث الآن قد أظلّ زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله (ص) أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله أنه النبي الذي توعّدكم به اليهود، فلا يسبقنكم اليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

وقالوا: إنّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم، فعسى الله أن يجمعهم بك، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. وكان هؤلاء ستة نفر من الخزرج.

فقال لهم النبي (ص): أتمنعون ظهري حتى أُبلّغ رسالة ربي؟

فقالوا: يا رسول الله إنما كانت بعاث عام الهول يوم من أيامنا اقتتلنا به، فان تقدم ونحن كذا لا يكون عليك اجتماع، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا لعل الله يصلح ذات بيننا وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه، فعسى الله أن يجمعهم عليك، فان جمعهم عليك واتبعوك فلا أحد أعز منك، وموعدك الموسم العام القابل، وانصرفوا إلى المدينة.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا رسول الله (ص)، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الانصار إلاّ وفيها ذكر من رسول الله (ص).

العقبة الأُولى وبيعتها

ولما كان العام المقبل أي: في سنة اثنتي عشرة من البعثة النبوية وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، وكان من بينهم: أسعد بن زرارة، وعبادة بن الصامت، فلقوا رسول الله (ص) عند العقبة الأولى، فبايعوه على القرار التالي:.

قال عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله (ص) على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل اولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بيد أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف.

فقال لنا رسول الله (ص): ان وفيتم فلكم الجنة، وان غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجلّ إن شاء عذّب وإن شاء عفا وغفر.

ثم انصرفوا.

وبعث (ص) معهم مصعب بن عمير يصلّي بهم، ويفقههم، ويعلمهم القرآن، وكان بينهم بالمدينة يسمّى بالمقرئ، فأسلم على يديه جمع كثير، حتى لم يبق دار في المدينة إلاّ وفيها رجال ونساء مسلمون الاّ ما شذ وندر.

العقبة الثانية وبيعتها

ثم رجع مصعب إلى مكة في العام المقبل ووافى في الموسم ذلك العام، أي بسنة ثلاث عشرة من البعثة النبوية خلق كثير من الأنصار من المسلمين والمشركين، وزعيم القوم البراء بن معرور، فلما كانت ليلة العقبة وقد مضى الثلث الأول من الليل تسلل إلى رسول الله (ص)

منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وأمرأتان: نسيبة بنت كعب إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء ابنة عمرو ابن عدي أُم منيع إحدى نساء بني سلمة.

قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله (ص)، حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلاّ أنه أحب أن يحضر أمر أبن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال:

يا معشر الخزرج! . وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها . إن محمداً منا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا، وهو في عزٍّ من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلاّ الانحياز اليكم واللحوق بكم، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعونه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه، فانه في عز ومنعة من قومه وبلده.

فقالوا له: سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلّم رسول الله (ص) وقال: ابايعكم على الإسلام.

فقال له بعضهم: نريد ان تعرفنا يا رسول الله ما لله علينا، وما لك علينا؟ وما لنا على الله؟

فقال (ص): أما ما لله عليكم: فان تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأما مالي عليكم: فتنصرونني مثل ما تنصرون ابناءكم ونساءكم، وان تصبروا على عضّ السيوف وان يقتل خياركم.

قالوا: فاذا فعلنا ذلك ما لنا على الله؟

قال: اما في الدنيا فالظهور على من عاداكم، وفي الآخرة رضوانه والجنة.

فأخذ البراء بن معرور بيده (ص) ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر.

فاعترض القوم . والبراء يكلم رسول الله (ص) . أبو الهيثم بن التيهان فقال: يارسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، ونحن قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسّم رسول الله (ص)، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أحارب من حاربتم وأسالم

من سالمتم. وفي حديث آخر قال: المحيى محياكم والممات مماتكم.

ثم قال رسول الله (ص): أخرجوا لي منكم اثني عشر نقيباً حتى يكونوا كفلاء على قومهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

فقال لهم رسول الله (ص): ارجعوا إلى رجالكم.

قال الراوي: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تسترجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وانه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه.

قال: وصدقوا، لم يعلموا. وبعضنا ينظر إلى بعض.

إبليس وبيعة العقبة

وفي حديث آخر: انه لما اجتمع الانصار في العقبة الثانية وبايعوا رسول الله (ص) على أن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم، ويمنعوا أهله مما يمنعون أهاليهم وأولادهم، وأخرجوا إليه منهم اثني عشر نقيباً ليكونوا شهداء عليهم بذلك، صاح ابليس: يا معشر قريش والعرب! هذا محمدٌ والصباة من أهل يثرب على جمرة العقبة يبايعونه على حربكم، فأسمع أهل منى، وهاجت قريش، فاقبلوا بالسلاح.

وسمع رسول الله (ص) النداء فقال للانصار: تفرقوا.

فقالوا: يا رسول الله إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيافنا فعلنا.

فقال رسول الله (ص): لم اؤمر بذلك، ولم يأذن الله لي في محاربتهم.

قالوا: فتخرج معنا؟

قال: انتظر أمر الله.

فجاءت قريش على بكرة ابيها قد اخذوا السلاح، وخرج حمزة وعلي (ع) ومعهما السيف فوقفا على العقبة. فلما نظرت قريش اليهما قالوا: ما هذا الذي اجتمعتم له؟

فقال حمزة: ما اجتمعنا وما ههنا احد، والله لا يجوز هذه العقبة أحد الاّ ضربته بسيفي هذا، فرجعوا إلى مكة وقالوا: لا نأمن ان يفسد أمرنا ويدخل واحد من مشايخ قريش في دين

محمد.

بيعة العقبة على لسان جابر

وعن جابر: ان النبي (ص) لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في المواسم وبذي المجاز ومجنّة وعكاظ وفي منازلهم من منى ويقول: (من يؤويني ومن ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة) فلا يجد أحداً ينصره ولا يؤويه، حتى أن الرجل ليرتحل من مصر واليمن إلى ذوي رحمه فيأتيه قومه فيقولون له: احذر غلام قريش لايفتنّك.

وكان (ص) يمشي بين رجالهم يعرض عليهم رسالات الله، وهم يشيرون اليه بالأصابع.

قال الراوي: انه كان كذلك حتى بعثنا الله من يثرب فيأتيه الرجل منا فيؤمن به يقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون باسلامه، وحتى لم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، وبعثنا الله إليه فائتمرنا فيما بيننا وأجمعنا على نصرته (ص) فرحلنا ونحن أكثر من سبعين نفراً حتى قدمنا عليه (ص) في الموسم، فواعدناه بيعة العقبة، فقال له عمّه العباس: يا ابن أخي، ما أدري ما هؤلاء القوم الذين جاءوك، إني ذو معرفة بأهل يثرب.

فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، فلما نظر العباس في وجوهنا قال: هؤلاء القوم لا نعرفهم، هؤلاء أحداث. فقلنا: يارسول الله، على ما نبايعك؟

قال (ص): (على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقوموا في الله لا تأخذكم في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة).

فقمنا نبايعه (ص)، فأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وهو أصغرنا ـ وقال: رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلاّ ونحن نعلم أنه رسول الله، وان إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وان تعضكم السيوف، فإمّا أنتم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإمّا أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذركم عند الله.

فقالوا: يا ابن زرارة امط عنا يدك، فوالله لا نترك هذه البيعة ولا نستقيلها.

فقمنا إليه (ص) رجلاً رجلاً فأخذ علينا البيعة يعطينا بذلك الجنة. ثم انصرفوا إلى المدينة.

فلما قدم الانصار إلى المدينة، اظهروا الاسلام بها، وكان في قومهم بقايا من شيوخ على دينهم من الشرك، منهم: عمرو بن الجموح، وكان ابنه معاذ بن عمرو ممن شهد العقبة وبايع رسول الله (ص) وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة وشريفاً من اشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له: (مناة) كما كانت الاشراف يصنعون، يتخذه إلهاً يعظمه ويظهره.

فلما أسلم فتيان بني سلمة . معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو . في فتيان منهم ممن اسلم وشهد العقبة، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها فضلات الناس منكساً على رأسه، فإذا اصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على إلهنا هذه الليلة؟

قال الراوي: ثم يعود ويلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينّه.

فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه فعملوا به مثل ذلك، فيغدوا فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطهره ويطيبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك.

فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال: إني والله ما أعلم من صنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك.

فلما أمسى ونام عدوا عليه وأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها فضلات وقذارات الناس.

ثم غدا عليه عمرو فلم يجده في مكانه الذي كان فيه، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب. فلما رآه أبصر شأنه، وكلمه من أسلم من قومه، فأسلم وحسن إسلامه، وأشترك مع رسول الله (ص) في غزوة احد فرزقه الله الشهادة فيها فمات شهيداً.

فصل

في الهجرة النبوية المباركة

الهجرة

ثم أمر رسول الله (ص) أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال (ص): إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها.

فخرجوا ارسالاً، وأقام رسول الله (ص) ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة.

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله (ص) من قريش من بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد وأسمه عبد الله، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قد قدم على رسول الله (ص) من أرض الحبشة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً، وحبست عنه أمرأته أم سلمة.

ثم كان أول من قدمها بعد أبي سلمة: عامر بن ربيعة ومعه أمرأته ليلى بنت أبي خيثمة.

ثم عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، احتمل بأهله وبأخيه، وكانت أُمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، فغلقت دار بني جحش هجرة، فمر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل ابن هشام وهم مصعدون إلى مكة، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها*** يوماً ستدركها النكباء والحوب

كل امرئ بلقاء الموت مرتهن*** كأنه غرض للموت منصوب

وكان بنو غنم بن دودان أهل اسلام، وقد أوعبوا إلى المدينة مع رسول الله (ص) رجالهم ونساؤهم.

فمن رجالهم: عبد الله بن جحش، وأخوه، وعكاشة بن محصن، وشجاع، وعتبة بن وهب، وأربد بن جبيرة، ومنقذ بن نباتة، وسعيد بن قيس، ومحرز بن نضلة، ويزيد بن رقيش، وقيس بن جابر، وعمرو بن محصن، ومالك بن عمرو، وصفوان بن عمرو، وغيرهم.

ومن نسائهم: زينب بنت جحش، وأُم حبيبة بنت جحش، وحمنة بنت جحش وجذامة بنت جندل، وأُم قيس بنت محصن، وأُم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت ثمامة،

وقال بن جحش في ذلك شعراً:

لنحن الأُلى كنا بها ثم لم نزل***بمكة حتى عاد غثاً سمينها

بها خيمت غنم بن دودان وابتنت***وما أن غدت عنم وخف قطينها

إلى الله تغدو بين مثنى وواحد***ودين رسول الله بالحق دينها

ثم تتابع المهاجرون فنزل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو مرثد كناز بن حصين وابنه مرثد الغنويان حليفا حمزة بن عبد المطلب على كلثوم بن هدم بقباء، وقيل: بل نزلوا على سعد بن خيثمة وقيل: بل نزل حمزة على أسعد بن زرارة أخي بني النجار، ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب وأخواه الطفيل والحصين ابنا الحارث على عبدالله بن مسلمة ونزل مصعب بن عمير على سعد بن معاذ وهكذا.

القرار الأخير

فلما رأت قريش أن رسول الله (ص) صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم وقد ساقوا الذراري والاطفال والأموال إلى الأوس والخزرج فعرفوا أن الدار دار منعة، وأن القوم أهل حلقة وبأس وشوكة، فخافوا خروج رسول الله (ص) إليهم ولحوقه بهم، فاجتمعوا في دار الندوة، ولم يتخلف أحد من ذوي الرأي والحجى منهم ليتشاوروا في أمره.

فاعترضهم إبليس في صورة شيخ كبير طاعن في السن عليه بت له، فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟

قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً.

قالوا: أجل فادخل.

فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش، فقال بعضهم لبعض: ان هذا الرجل([٧٢])

[٧٢] – أي: الرسول(ص).

قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنّا والله لا نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً. فتشاوروا.

ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله: زهير والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثرونكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره.

فتشاوروا في أمره ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم اليكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟

قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه. فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبدمناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم.

قال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي لا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له.

جبرئيل وإفشاء المؤامرة

فأتى جبرئيل رسول الله (ص)، فتلا هذه الآية: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ) ([٧٣]) ثم قال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه وأمره بالهجرة وان يبيت علياً (ع) مكانه.

فدعا رسول الله (ص) علياً (ع) لوقته وقال له: يا علي ان جبرائيل هبط عليّ بهذه الآية آنفاً، يخبرني إن قريشاً اجتمعت على المكر بي وقتلي، وانه اوحى إليّ عن ربي عز وجل ان أهجر دار قومي وان انطلق إلى غار ثور تحت ليلتي، وانه أمرني أن آمرك بالمبيت على مضجعي تفديني بنفسك، وتخفي عليهم أمري، فما أنت قائل و صانع؟

قال علي (ع): أو تسلمنّ بمبيتي هناك يا نبي الله؟

قال: نعم، فتبسّم علي (ع) ضاحكاً وأهوى إلى الأرض ساجداً شكراً لله على ذلك، فلما رفع رأسه قال له: يا نبي الله امض لما أُمرت، فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي، ومرني بما شئت اكن فيه لمسرتك، واقع منه بحيث مرادك، وما توفيقي الاّ بالله.

فشكره رسول الله (ص) على ذلك وقال له: فارقد على فراشي واشتمل ببردي الحضرمي.

ليلة المبيت

لما أنام رسول الله (ص) علياً (ع) على فراشه وعزم على الخروج التفت إليه يودّعه وهو يقول: أخبرك يا علي ان الله تعالى يمتحن أولياءه على قدر ايمانهم ومنازلهم من دينه، فأشدّ الناس بلاءاً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، وقد امتحنك يابن العم وامتحنني فيك بمثل ما امتحن به خليله إبراهيم (ع) والذبيح إسماعيل(ع)، فصبراً صبراً، فإنّ رحمة الله قريب من المحسنين.

ثم ضمّه النبي (ص) إلى صدره وبكى وجداً به، وبكى علي (ع) جشعاً لفراق رسول الله (ص) ثم أوصاه بوصاياه وأمره في ذلك بالصبر حتى صلّى العشائين ثم خرج (ص) في فحمة العشاء الآخرة، والرصد من قريش قد أطافوا بداره.

---

[٧٣] – الانفال: ٣٠.

القرآن ومبيت علي (ع)

نام علي (ع) على فراش رسول الله (ص) موطناً نفسه على القتل، فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل: اني آخيتُ بينكما وجعلتُ عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بحياته؟ فاختار كل منهما الحياة وأحبّاها.

فأوحى الله عزّوجل إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب (ع) آخيتُ بينه وبين محمد (ص) فبات على فراشه يفديه بنفسه، ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه، فكان جبرئيل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه، وجبرئيل ينادي: بخ بخ، من مثلك يابن أبي طالب؟ يباهي الله بك الملائكة، فأنزل الله عزّ وجل: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ) ([٧٤]).

ليلة الهجرة

أطاف المشركون بدار رسول الله (ص) وفيهم أبوجهل بن هشام، فقال وهم على بابه: انّ محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم فجُعِلَت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان لكم منه الذبح، ثم بُعثتم من بعد موتكم فجُعِلت لكم نار تحرقون فيها.

فخرج رسول الله (ص) في هذه الحال وقد أخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم، وأخذ الله على أبصارهم عنه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو (ص) يتلو هذه الآيات من سورة يس: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ يس، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) ([٧٥]) إلى قوله تعالى: (وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ) ([٧٦]) حتّى فرغ من الآيات، فلم يبق منهم رجل إلاّ وقد وضع على رأسه التراب، ثم انصرف (ص) إلى حيث أراد أن يذهب.

وعلى رواية: أتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ههنا؟

---

[٧٤] – البقرة: ٢٠٧.

[٧٥] – يس: ١ ـ ٣.

[٧٦] – يس: ٩.

قالوا: محمّداً.

قال: خيّبكم الله، قد والله خرج عليكم محمّد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلاّ وقد وضع على رأسه التراب، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟!

قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب.

ثم جعلوا يطّلعون فيرون علياً (ع) على الفراش متسجياً ببرد رسول الله (ص)، فيقولون: والله إنّ هذا لمحمّد نائم عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا. فقام عليّ (ع) من الفراش. فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي كان حدّثنا به.

فقال لهم علي (ع): ما شأنكم؟

قالوا: أين محمّد؟

قال: أجعلتموني عليه رقيباً؟! ألستم قلتم: نخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم.

فأقبلوا على أبي لهب الذي كان يمنعهم عن مداهمة البيت ليلاً يلومونه ويقولون له: أنت تخدعنا منذ الليلة، ثم تفرّقوا في طلبه.

وكان رسول الله (ص) يمشي تلك الليلة على أطراف قدميه كي يخفي اثره حتى حفيت قدماه، ورأى (ص) في طريقه أبابكر فاصطحبه وذلك لعلل مذكورة في المفصّلات.

تاريخ الهجرة

وكانت الليلة التي خرج فيها رسول الله (ص) مهاجراً من مكة ليلة الخميس أول ليلة من شهر ربيع الأول بعد أن انقضت مدّة ثلاث عشرة سنة من مبعثه الشريف، وفيها كان مبيت علي (ع) على فراشه، وكان خروجه من غار ثور ليلة الرابع من شهر ربيع الأول، حيث توجّه فيها إلى المدينة، ووصلها يوم الإثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول أي: بعد اثنتي عشرة ليلة خلت منه، فنزل بقبا ينتظر قدوم علي (ع) عليه، فقد أمره النبي (ص) بعد المبيت على فراشه أن يبقى في مكة حتى يؤدّي الودائع والأمانات التي كانت للناس عنده، ثم يحمل الفاطميّات معه ويلتحق بالنبي (ص)، وهكذا فعل علي (ع).

فعن أبي رافع انه قال: كان علي (ع) يجهّز النبي (ص) حين كان في الغار يأتيه بالطعام والشراب، وخلّفه النبي (ص) ليخرج إليه أهله فأخرجهم، وأمره أن يؤدي عنه أماناته ووصاياه وما كان بمؤتمن عليه من مال، وأن يقضي عنه ديونه وينجز عداته، فلما أداها قام على

الكعبة فنادى برفيع صوته: (يا أيها الناس هل من صاحب أمانة؟ هل من صاحب وصيّة؟ هل من عِدة له قِبَل رسول الله (ص)؟) فلما لم يأت أحد لحق بالنبي (ص).

المشركون يطلبون الرسول (ص)

ولما فوجئ المشركون بمغادرة الرسول (ص) داره، وانّ النائم في فراشه هو علي بن أبي طالب (ع) أذكوا عليه العيون، وركبوا في طلبه الصعب والذلول.

وخرجوا يقتصون أثره، وأخذوا معهم القافة حتى وصلوا إلى الغار، وكان الله تعالى قد أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار، وباضتا في أسفل النقب، فكان ذلك مما صد المشركين عنه، فلما أتوا الغار طارت الحمامتان ورأوا البيض ونسج العنكبوت فقالوا: لو دخل هاهنا لتكسر البيض ولم يكن عليه نسج العناكب، فصرفهم الله عزّوجل بذلك عنه.

الجائزة لمن جاء بالرسول (ص)

ولما يئس المشركون من الظفر برسول الله (ص) جعلوا لمن جاء به دية كاملة أي: مائة من الإبل جائزة لذلك، فجدّ الناس في الطلب (والله غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون).

وكان ممّن جدّ في طلبه سراقة بن مالك بن جعشم حيث يقول:

جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله (ص) دية كاملة لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي من بني مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتّى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم، لكني أردتُ الحصول على الجائزة لوحدي.

فقلت: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا.

ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرتُ جاريتي أن تخرج بفرسي من وراء أكمة فتحبسها عليَّ، فأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، فدفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم.

فلما رآني رسول الله (ص) أقترب منهم، رفع يديه نحو السماء وقال: (اللهمّ اكفني شرّ

سراقة بما شئت).

فساخت قوائم فرسي، فثنيت رجلي ثم اشتددت وقلت: يا محمد اني علمت ان الذي أصاب قوائم فرسي انما هو من قِبلك، فادع الله أن يطلق لي فرسي، فلعمري ان لم يصبكم خير منّي لم يصبكم منّي شرّ.

فدعا رسول الله (ص) فأطلق الله عزّوجل فرسه، فعاد في طلب رسول الله(ص) حتّى فعل ذلك ثلاث مرّات، كل ذلك يدعو رسول الله (ص) فتأخذ الأرض قوائم فرسه.

فلما أطلقه الله في الثالثة قال: يا محمد هذه ابلي بين يديك فيها غلامي، وان احتجت إلى ظهر أو لبن فخذ منه، وهذا سهم من كنانتي علامة عليه، وأنا ارجع فأردّ عنك الطلب.

فقال (ص): لا حاجة لنا فيما عندك.

قال الرجل: ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم ان سيظهر أمر رسول الله (ص)، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، وكان الكتاب معه إلى يوم فتح مكة، فجاء بالكتاب فوفى له رسول الله (ص) وكان يوم وفاء وبرّ.

مع بريدة الأسلمي

وممّن جدّ في طلب الرسول (ص) بريدة بن الحصيب الأسلمي، فقد ركب في سبعين راكباً من أهله من بني سهم يطلبه، فالتقى به فبادره الرسول (ص) قائلاً: من أنت؟

قال: أنا بريدة.

فقال (ص): برد أمرنا وصلح.

ثم قال (ص): وممّن أنت؟

قال: من أسلم.

فقال (ص): سلمنا.

ثم قال (ص): ممّن؟

قال: من بني سهم.

وهنا التفت إليه النبي (ص) وقال له: خرج سهمك.

فأعجب بريدة تفاؤل الرجل وحسن أخلاقه وأحبّه في قلبه، وتلهّف للتعرّف عليه فقال له: ومن أنت؟

فقال (ص): أنا محمد بن عبدالله رسول الله.

فلم يتريَّث بريدة لما سمع ذلك حتّى قال: (أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنَّ محمّداً رسول الله) فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعاً.

فقال (ص): الحمد لله لقد أسلمت بنو سهم طائعين غير مكرهين.

عند أُم معبد

ثم مضى رسول الله (ص) فيمن معه فمروا بخيمة أُم معبد الخزاعية، وكانت امرأة جلدة برزة تحتبي بفناء الخيمة ثم تطعم وتسقي من مر بها، فسألها (ص): هل عندها شيء يشترونه؟

فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى، والشاء عازب، وكانت سنة شهباء.

فنظر رسول الله (ص) إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا أُم معبد؟

فقالت: هذه شاة خلّفها الجهد عن الغنم.

فقال (ص): هل بها من لبن؟

قالت: هي أجهد من ذلك.

قال (ص): أفتأذنين لي أن أحلبها.

قالت: نعم، بأبي وأُمّي، إن رأيت بها حليباً فاحلبها.

فدعا رسول الله (ص) بالشاة فمسح بيده ضرعها وذكر اسم الله وقال: اللهمّ بارك لها في شاتها، فتفاجّت عليه ودرّت واجترّت، فدعا بإناء لها يُربض الرهط فحلب فيه ثجاً حتى علته الرغوة، فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب (ص) آخرهم، فشربوا جميعاً عللاً بعد نهل، ثم حلب فيه ثانياً حتى ملأ الإناء.

فلما رأت أُمّ معبد ذلك قالت: إنّ لي ولداً له سبع سنين وهو كقطعة لحم لا يتكلّم ولا يقوم، فأتته به، فأخذ (ص) تمرة وقد بقيت في الوعاء ومضغها وجعلها في فيه، فنهض في الحال، ومشى وتكلّم، وجعل نواها في الأرض فصارت في الحال نخلة، وقد تهدّل الرطب منها، وكان كذلك صيفاً وشتاءاً، وأشار من الجوانب فصار ما حَولها مراعي، ثم ارتحلوا عنها.

فقلّما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزالاً. فلما رأى اللبن وما إلى ذلك عجب وقال: من أين لكِ هذا والشاء عازب حيال، ولا حلوبة في البيت؟!

فقالت: لا والله، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك، كان من حديثه كيت وكيت.

قال: والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه، صِفيه لي يا أُمّ معبد.

فقالت: رأيتُ رجلاً ظاهر الوضاءة حسن الخلق، أبلج الوجه، لم تعبه ثجلة. ويروى نحلة بالنون والحاء . ولم تزر به صعلة، كأن عنقه ابريق فضّة، وسيم جسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، أحور أكحل أزج أقرن شديد سواد الشعر، في عنقه سطع، وفي لحيته كثاثة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلّم سما به وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم ينحدرن، حلو المنطق فصل، لانزر ولا هذر، أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه عين من طول ولا تقتحمه من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفنّد.

فقال: هذا والله صاحب قريش الذي ذكروا لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولو كنت أنا وافقته لالتمست أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، فإنه صادق في قوله انه رسول الله، فليس هذا إلا من فعل الله، ثم قصده فآمن هو وأهله.

ويروى: أن الشاة التي لمس رسول الله (ص) ضرعها وحلبها بيده بقيت عند أُمّ معبد حتى كان زمن الرمادة في سنة ثمان عشرة من الهجرة.

قالت أُم معبد: هاجرت وأسلمت، وكنا نحلبها صبوحاً وغبوقاً وما في الأرض قليل ولا كثير.

انتظار المسلمين للرسول (ص)

وبلغ المسلمين خروج رسول الله (ص) من مكة إلى المدينة، فجعلوا يفدون كل غداة إلى الحرة فينظرون حتى يردّهم حر الظهيرة. فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم ينظر لأمر يريده، فبصر برسول الله (ص) وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن نادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، هذا جدكم الذي تنتظرون.

فبادر المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله (ص) بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين وسار حتى نزل بـ (قبا) في (بني) عمرو بن عوف) فكبّر المسلمون فرحاً بقدومه، وسمعت الوجبة والتكبير في بني عمرو بن عوف، فنزل على كلثوم ابن الهدم، وقيل: على سعد بن

خيثمة، بـ (قبا) وبقي هناك ينتظر قدوم علي (ع).

وكان علي (ع) قد خرج بالفواطم([٧٧]) بعد أن أدّى ودائع كانت عند رسول الله (ص) للناس، وقضى ديونه وأنجز عداته، فلما قدم المدينة رآه النبي (ص) وقد تورّمت قدماه وأصبحتا يقطران دماً، فاعتنقه وبكى رحمة لما به، ثم دعا له (ع) بالعافية، ومسح رجليه فلم يشكهما بعد ذلك.

ثم نزل (ع) مع النبي (ص) بقبا، وبقي رسول الله (ص) بعد قدوم علي (ع) في بني عمرو بن عوف يوماً أو يومين، وفي مدة بقائه بقبا أسّس مسجد قباء، وهو أول مسجد أُسِّس على التقوى بعد النبوّة بالمدينة المنوّرة.

أول جمعة بالمدينة

فلما كان يوم الجمعة ركب بأمر الله له، فاجتمعت إليه بنو عمرو بن عوف فقالوا: يا رسول الله أقم عندنا فإنّا أهل الجدّ والجلد، والحلقة والمنعة.

فقال (ص): خلّوا عنها فإنها مأمورة.

وبلغ الأوس والخزرج خروج رسول الله (ص) فلبسوا السلاح وأقبلوا يعدون حول ناقته، لايمرّ بحيّ من أحياء الأنصار إلا وثبوا وأخذوا بزمام ناقته وطلبوا منه النزول عليهم، وهو (ص) يقول لهم: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة.

حتى مرّ (ص) ببني سالم عند الزوال من يوم الجمعة، فتعرضت له بنو سالم فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا فإنا أهل الجد والجلد، والحلقة والمنعة، فبركت ناقته عند مسجدهم فنزل في مسجدهم الذي خطه (ص) لهم ونصب قبلته وصلّى بهم الجمعة وخطبهم، وكان أول مسجد خطب فيه بالجمعة، وصلّى إلى بيت المقدس، وكان الذين صلّوا معه في ذلك الوقت مائة رجل.

عند أبي أيوب

ثم ركب النبي (ص) ناقته وعلي (ع) معه لايفارقه يمشي بمشيه، فأرخى زمامها لايحركها

---

[٧٧] – أمه وبنت رسول الله (ص) وبنت الزبير.

وهي تنظر يميناً وشمالاً، فلم تزل ناقته سائرة، ولا يمر بدار من دور الأنصار إلاّ رغّبوه في النزول عليهم وأخذوا بخطام راحلته وقالوا: هلم إلى العوذ والعدة والسلاح والمنعة، فكان يجيبهم (ص) بعد التشكّر منهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة.

فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع مسجده اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول عند باب أبي أيوب فنزل عنها، ولم يكن آنذاك مسجداً، فجعل الناس يكلمون رسول الله (ص) في النزول عليهم، فبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله فحلّه وأدخله منزله، فجعل رسول الله (ص) يقول: (المرء مع رحله).

وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته فحوّلها إلى منزله، فقال النبي (ص): أي بيوت أهلنا أقرب؟

فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله، هذه داري، وهذا بابي.

قال (ص): فانطلق فهي لنا مقيلاً.

قال: قوما على بركة الله، فنزل رسول الله (ص) وعلي (ع) معه([٧٨]) في دار أبي أيوب، حتى بُني له مسجده، وبُنيت له مساكنه ومنزل علي (ع)، فتحوّلا إلى منازلهما.

وقيل: انه لما بركت ناقة رسول الله (ص) على باب أبي أيوب الأنصاري ولم يكن أفقر منه في المدينة انقطعت قلوب الناس حسرة على مفارقة النبي (ص) فنادى أبو أيوب: يا أُماه افتحي الباب، فقد قدم سيد البشر، وأكرم ربيعة ومضر، محمد المصطفى، والرسول المجتبى.

فخرجت وفتحت الباب وكانت عمياء فقالت: واحسرتاه ليت كانت لي عين أبصر بها وجه سيّدي رسول الله (ص)، فدعا (ص) لها فانفتحت عيناها، وكانت أول معجزة النبي (ص) في المدينة.

وفي رواية: انه لما أقبل رسول الله (ص) إلى المدينة لم يُر الناس فرحوا بشيء مثل فرحهم به، حتى ان النساء والصبيان والإماء كانوا يقولون: هذا رسول الله، قد جاء رسول الله.

وعن بعضهم انه قال: شهدته (ص) يوم دخل المدينة فما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوء من يوم دخل علينا، وشهدته يوم مات فما رأيت يوماً قط كان أقبح ولا أظلم من

---

[٧٨] – راجع مناقب ابن شهرآشوب: ١ / ١٣١ ط.

يوم مات.

المسجد النبوي الشريف

وكان رسول الله (ص) يصلّي في المربد بأصحابه، فقال لأسعد بن زرارة: اشتر هذا المربد من أصحابه، . وكان ليتيمين . فساوم اليتيمين عليه، فقالا: هو لرسول الله. فقال رسول الله (ص): لا، إلاّ بثمن.

فاشتراه (ص) بعشرة دنانير، وكان فيه ماء مستنقع، فأمر به رسول الله (ص) فسيل، وأمر باللبن فضرب، فبناه مسجداً، وبنى منازله ومنازل أصحابه حول المسجد، وخط لعلي بن أبي طالب (ع) ولحمزة (ع) مثل ما خطّ له ولأصحابه، فبنوا فيه منازلهم، وكل منهم شرع منه باباً إلى المسجد، فكانوا يخرجون من منازلهم فيدخلون المسجد.

فنزل عليه جبرئيل (ع) وقال: ان السلام يخصّك بالسلام ويأمرك بسدّ الأبواب إلاّ بابك وباب علي بن أبي طالب، فإنه يحل له فيه ما يحل لك، فتأثر أصحاب الأبواب من ذلك.

فقال لهم رسول الله (ص): ما أنا أمرتُ بسدّها، ولكن الله أمر بسدّ أبوابكم وترك باب علي (ع).

فقالوا: رضينا وسلمنا لله ولرسوله.

بناء المسجد

ولما أمر النبي (ص) ببناء المسجد طفق ينقل معهم اللبن وكان يقول وهو ينقل اللبن:

(هذا الحمال لا حمال خيبر، هذا وربّنا أبرّ وأطهر).

أي: هذا المحمول من اللبن أبرّ عند الله وأطهر يعني: أبقى ذخراً وأدوم منفعة من التمر والزبيب والطعام المحمول من خيبر الذي يغتبطه حاملوه، وكان يقول أيضاً: (اللهمّ انّ الأجر أجر الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرين).

وأخذ المسلمون يرتجزون وهم يعملون، فقال بعضهم:

لئن قعدنا والرسول يعمل***لذاك منا العمل المضلل

والنبي (ص) يقول: (لا عيش إلاّ عيش الآخرة، اللهمّ ارحم الأنصار والمهاجرين).

فدخل عمّار بن ياسر وقد أثقلوه باللبن، فقال: يا رسول الله قتلوني، يحملون عليَّ ما

لايحملون.

فتبسَّم رسول الله (ص) ونفض وفرة عمّار بيده وكان رجلاً جعداً وقال له: (ويح ابن سميّة، ليسوا بالذين يقتلونك، انما تقتلك الفئة الباغية).

وارتجز علي بن أبي طالب (ع) يومئذ وهو يقول:

لا يستوي من يعمر المساجدا***يدأب فيها قائماً وقاعداً

ومن يرى عن التراب حائداً

وجعلت قبلته إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب، وقيل: أكثر من ثلاثة، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخّره مائة ذراع، وفي الجانبين مثل ذلك أو دونه، وجعل أساسه قريباً من ثلاثة أذرع، وجعل عمده الجذوع، وسقّفه بالجريد، وجعل عضادتيه الحجارة، وقيل له: ألا تسقفه؟ فقال: لا، عريش كعريش موسى، وبنى بيوتاً إلى جنبه باللبن وسقفها بالجريد والجذوع لنفسه ولأصحابه.

وكان في مؤخر المسجد موضع مظلل يأوي إليه المساكين يسمّى (الصفّة).

وكان النبي (ص) يدعوهم بالليل فيفرقهم على أصحابه، ويتعشى طائفة منهم معه، وأجرى (ص) في مسجده نهراً.

مغادرة بيت أبي أيوب

ثم انتقل رسول الله (ص) من بيت أبي أيوب إلى مساكنه التي بنيت له، وقيل: ان مدة مقامه في بيت أبي أيوب بالمدينة إلى أن بنى المسجد وبيوته: كان من شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة، واستجمع له إسلام هذا الحي من الأنصار، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها، إلا ما شذّ وندر.

المؤاخات بين المهاجرين والأنصار

ثم آخى رسول الله (ص) بين المهاجرين والأنصار من أصحابه، وكانوا تسعين رجلاً، وقيل: ثلاثمائة رجل، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الموت، إلى وقعة بدر. فلما أنزل الله تعالى: (وَأُولُوا الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ

أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ) ([٧٩]) ردّ التوارث إلى الرحم دون عقد الأُخوّة.

وقد تمت عملية المؤاخاة مرتين، وفي كل مرة اتّخذ النبي (ص) عليّاً (ع) أخاً لنفسه من دون الناس.

كما انه (ص) آخى بين النساء المهاجرات والأنصار أيضاً.

وروى السبط ابن الجوزي قائلاً: آخى رسول الله (ص) بين المهاجرين والأنصار، فبكى علي (ع) فقال رسول الله (ص): ما يبكيك يا علي؟

قال: لم تواخ بيني وبين أحد.

قال: أنا ادّخرتك لنفسي، ثم قال لعلي (ع): أنت منّي بمنزلة هارون من موسى([٨٠]).

ثم قال (ص): يا علي أما علمت ان أول من يدعى به يوم القيامة أنا، فأقوم عن يمين العرش، إلى أن قال: ثم أنت أول من يدعى به لقرابتك منّي ومنزلتك عندي، ويدفع إليك لوائي وهو لواء الحمد.

النبي (ص) ونقباء الأنصار

وكان من النقباء الاثني عشر الذين جعلهم رسول الله (ص) شهداء على الأنصار: البراء بن معرور، وكان هو أول من تكلّم ليلة العقبة حين التقى رسول الله (ص) بالسبعين من الأنصار فبايعوه، وقد توفّي قبل قدوم رسول الله (ص) إلى المدينة بشهر، فلما قدم رسول الله (ص) انطلق بأصحابه فصلّى على قبره وقال: (اللهمّ اغفر له وارحمه وارض عنه وقد فعلت).

وكان البراء هذا هو أول من مات من النقباء، ومات بعده من النقباء الاثني عشر: أسعد بن زرارة، وذلك قبل أن يفرغ رسول الله (ص) من بناء مسجده، ودفن بالبقيع، والأنصار

---

[٧٩] – الأنفال: ٧٥.

[٨٠] – حديث المنزلة وقد أجمع عليه سائر فرق الإسلام، قال ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه على نهج البلاغة: ج ١٣ ص ٢١١ ط دار إحياء التراث العربي: (وقال النبي في الخبر المجمع على روايته بين سائر فرق الإسلام (أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيّ بعدي) فأثبت له جميع مراتب هارون عن موسى، فإذن هو وزير رسول الله وشادّ ازره، ولولا أنه خاتم النبيّين لكان شريكاً في أمره) انتهى. وفي البخاري ج ٥ ص ٢٤ باب مناقب علي بن أبي طالب: (قال النبي لعلي: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى).

يقولون: هو أول من دفن فيها، والمهاجرون يقولون: أول من دفن فيها هو عثمان بن مضعون.

ولما مات أبو امامة أسعد بن زرارة جاءت بنو النجار إلى رسول الله (ص) . وكان أبو امامة نقيبهم . فقالوا: يا رسول الله إنّ هذا الرجل قد كان منّا حيث قد علمت، فاجعل لنا رجلاً مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم.

فقال لهم رسول الله (ص): أنا نقيبكم، وكره رسول الله (ص) أن يخص بها بعضهم دون بعض، فكان من فضل بني النجار أن كان رسول الله (ص) نقيبهم.

تشريع الأذان

ولما كثر المسلمون ذكروا أن يعلموا وقت الصلاة بشيء، فذكروا: أن يوروا ناراً، أو يضربوا ناقوساً، أو ينفخوا في بوق، أو يبعثوا من ينادي بالصلاة.

فهبط جبرائيل (ع) على رسول الله (ص) بالأذان والإقامة، وعندها أمر رسول الله (ص) علياً (ع) أن يدعو له بلالاً، فدعاه فعلمه رسول الله (ص) الأذان وأمره به، وكان من فصولهما: (حيَّ على خير العمل).

ثم في يوم الغدير لما نصب النبي (ص) علياً (ع) بأمر من الله تعالى خليفة على المسلمين، وأخذ منهم البيعة له بإمرة المؤمنين، زيد في فصولهما بأمره (ص) بعد الشهادة لله بالوحدانية وللنبي بالرسالة: الشهادة لعلي (ع) بالولاية.

أبو سفيان: أول من صادر أموال المسلمين

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله (ص)، فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس.

وبعث رسول الله (ص) وهو بعد في منزل أبي أيوب: زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكّة، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم ليحملوا إليه بناته اللاتي لم يسلم أزواجهنّ، لنزول القرآن في حرمتهنّ على أزواجهنّ إلاّ أن يسلموا، وليحملوا إليه زوجته سودة بنت زمعة، وأُسامة بن زيد، وأُمه، وأُم أيمن، فقدما عليه بهنّ وبأُسامة.

وأما زينب بنت رسول الله (ص) فقد خرجت فتعرّض لها هبّار في الطريق بما أسقط جنينها فتمرضت على أثره وفارقت الحياة، فأهدر رسول الله (ص) دم هبار على جريمته هذه

حيث انه قتل الأُم وجنينها معاً.

نعم لم يستوعب من مكة أهل هجرة بأهليهم وأموالهم إلى الله وإلى رسوله إلا أهل دور يسمون بني مظعون من بني جُمح وبنو جحش بن رئاب وبنو البكير من بني سعد بن ليث، فإن دورهم أُغلقت بمكة هجرة.

ولما خرج بنو جحش من دارهم عدا عليها أبوسفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة أخي بني عامر بن لؤي.

فلما بلغ بني جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ذكر ذلك عبدالله بن جحش لرسول الله (ص)، فقال له: أما ترضى يا عبدالله أن يعطيك الله بها داراً في الجنّة؟

قال: بلى.

قال: فذلك لك.

فلما افتتح رسول الله (ص) مكة كلمه ابن جحش في دارهم فأبطأ عليه رسول الله (ص).

فقال له الناس: إنّ رسول الله (ص) يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أُصيب منكم في الله.

فأمسك عن كلام رسول الله (ص)، وقال:

أبلغ أبا سفيان***عن أمر عواقبه ندامه

دار ابن عمك بعتها***تقضي بها عنك الغرامه

وحليفكم بالله رب***الناس مجتهد القسامه

اذهب بها، اذهب بها***طُوِّقتها طوق الحمامه

المدينة ودعاء الرسول (ص)

كان هواء المدينة وخماً وعفناً، وكانت المدينة من أوبأ أرض الله من الحمّى، وكانت مشهورة بالوباء في الجاهلية، ومن أجلها كانت تدعى باسم يثرب، فإذا دخلها غريب تمرض، فاستوخم المهاجرون هواء المدينة ولم يوافق مزاجهم، فمرض كثير منهم وضعفوا حتى لم يقدروا على الصلاة قياماً، وكرهوا المدينة، فقال رسول الله (ص) وهو يدعو ربّه: (اللهمّ حبّب إلينا المدينة كما حبّبت إلينا مكّة أو أشدّ، وبارك لنا في مدّها وصاعها، وانقل وباءها وحماها عنا)

ثم سماها طيبة، فسمّيت بها واشتهرت بمدينة الرسول (ص).

علي (ع) يخطب فاطمة (ع)

ولما انتقل رسول الله (ص) من بيت أبي أيوب إلى منازله كانت ابنته فاطمة(ع) عنده، فخطبها أكابر قريش من أهل الفضل والسابقة في الإسلام والشرف والمال، كما خطبها بعض الصحابة، وكان كلما ذكرها له أحدهم أعرض عنه رسول الله (ص)بوجهه، حتى كان الرجل منهم يظن ان رسول الله (ص) ساخط عليه.

فقيل لعلي (ع): لم لا تخطب فاطمة؟ فوالله ما نرى رسول الله (ص) يحبسها إلاّ عليك.

فأقبل علي (ع) إلى النبي (ص) خاطباً وهو في دار أُم سلمة، وقبل أن يصل علي (ع) إلى الدار هبط جبرئيل على النبي (ص) وأخبره بمجيء علي (ع).

فلما طرق الباب قال النبي (ص) لأُم سلمة: افتحي له الباب ومريه بالدخول، فهذا رجل يحبّه الله ورسوله ويحبّهما، فدخل فإذا هو علي (ع)، فسلّم على النبي (ص) وجلس مطرقاً برأسه حياءاً.

فقال له النبي (ص): أني أرى انك أتيت لحاجة؟

فقال علي (ع): فداك أبي وأُمي يا رسول الله، انك لتعلم انك أخذتني من عمك أبي طالب ومن فاطمة بنت أسد، وأنا صبيّ، فغذّيتني بغذائك، وأدّبتني بأدبك، فكنتَ إليّ أفضل من أبي طالب ومن فاطمة بنت أسد في البرّ والشفقة، وان الله تعالى هداني بك وعلى يديك، وأنت والله يا رسول الله ذخري وذخيرتي في الدنيا والآخرة، يا رسول الله، فقد أحببت مع ما شدّ الله من عضدي بك أن يكون لي بيت، وأن يكون لي زوجة أسكن إليها، وقد أتيتك خاطباً راغباً، أخطب إليك ابنتك فاطمة، فهل أنت مزوّجي يا رسول الله؟ ثم سكت وأطرق برأسه ينتظر جواب رسول الله (ص).

صداق الزواج

ولما خطب علي (ع) فاطمة(ع) من أبيها رسول الله (ص) تهلّل وجه رسول الله (ص) فرحاً وسروراً وقال له: فهل معك شيء أُزوّجك به؟

فقال علي (ع): فداك أبي وأُمي، والله ما يخفى عليك من أمري شيء، أملك سيفي

ودرعي وناضحي، ومالي شيء غير هذا.

فقال رسول الله (ص): يا علي أما سيفك فلا غنى بك عنه تجاهد به في سبيل الله وتقاتل به أعداء الله، وناضحك تنضح به على نخلك وأهلك وتحمل عليه رحلك في سفرك، ولكني قد زوجتك بالدرع ورضيت بها منك، يا علي أبشر فإن الله تعالى قد زوّجكها في السماء قبل أن أُزوّجك في الأرض.

ابداء الرضا

ثم قال رسول الله (ص) لعلي (ع): يا علي انه قد ذكر فاطمة رجال قبلك، فذكرتُ ذلك لها، فرأيتُ الكراهة في وجهها، ولكن على رسلك حتى أخرج إليك.

فدخل (ص) عليها فقامت(ع) فأخذت رداء أبيها (ص) ونزعت نعليه، وأتته بالوضوء فوضّئته بيدها، وغسلت رجليه، ثم جلست تنتظر أمره (ص).

فقال (ص) لها: يا فاطمة!

فقالت: لبيك يا أبة يا رسول الله ما حاجتك؟

قال: ان علي بن أبي طالب من قد عرفت قرابته وفضله وإسلامه، واني قد سألتُ ربّي أن يزوّجك خير خلقه وأحبّهم إليه وقد ذكر عن أمرك شيئاً، فما ترين؟

فسكتت فاطمة(ع) ولم تولّ وجهها، ولم يرَ فيها رسول الله (ص) كراهة، فقام وهو يقول: (الله أكبر، سكوتها اقرارها).

إعلان خبر الزواج

ثم قام علي (ع) ومضى إلى المسجد، وجاء رسول الله (ص) في أثره، وفي المسجد المهاجرون والأنصار، فصعد رسول الله (ص) المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: معاشر المسلمين ان جبرئيل أتاني آنفاً فأخبرني عن ربّي عزّوجل انه جمع الملائكة عند البيت المعمور، وانه أشهدهم جميعاً انه زوّج أمته فاطمة بنت رسول الله من عبده علي بن أبي طالب، وأمرني أن أُزوّجه في الأرض وأُشهدكم على ذلك.

ثم جلس وقال لعلي (ع): قم يا أباالحسن فاخطب أنت لنفسك.

فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي وآله ثم قال:

(الحمد لله شكراً لأنعمه وأياديه، ولا إله إلاّ الله شهادة تبلغه وترضيه، وصلّى الله على محمد صلاة تزلفه وتحظيه، والنكاح مما أمر الله عزوّجل به ورضيه، ومجلسنا هذا مما قضاه الله وأذن فيه، وقد زوّجني رسول الله ابنته فاطمة وجعل صداقها درعي هذا وقد رضيت بذلك، فاسألوه واشهدوا).

فقال المسلمون لرسول الله (ص): زوّجته يا رسول الله؟

فقال (ص): نعم.

فقالوا: بارك الله لهما شملهما.

الصداق لمصلحة الزوجين

ثم أقبل رسول الله (ص) على علي (ع) وقال له: يا علي انطلق الآن فبع درعك وأتني بثمنه حتى أُهيّء لك ولإبنتي فاطمة ما يصلحكما.

قال علي (ع): فانطلقتُ فبعتُ درعي بأربعمائة درهم، وقيل: بأربعمائة وثمانين، وقيل: بخمسمائة درهم([81]) وأقبلتُ بها إلى رسول الله (ص) وطرحتها بين يديه، فدعا رسول الله (ص) بعض أصحابه ودفع له بعض المال وقال له: اشتر بهذه الدراهم لابنتي ما يصلح لها في بيتها، فانطلق واشترى:

١ ـ فراشاً من خيش مصر محشواً بالصوف.

٢ ـ نطعاً من ادم.

٣ ـ وسادة من ادم حشوها من ليف النخل.

٤ ـ عباءة خيبرية.

٥ ـ قربة للماء.

٦ ـ كيزاناً.

٧ ـ جراراً.

٨ ـ مطهرة للماء.

---

[81] – وفي بعض الأخبار: ان صداقها (ع) كان ثلاثين درهماً فقط [راجع الكافي: ج ٥ ص ٣٧٧ ح ٢] وذلك لتتضع المناكح.

٩ . ستراً من صوف.

١٠ . رحى لليد.

فلما وضع ما اشتراه بين يدي رسول الله (ص) نظر إليه فبكى وجرت دموعه، ثم رفع يده إلى السماء وقال: (اللهمّ بارك لقوم جُلّ آنيتهم الخزف).

وهذا الدعاء يشمل من حينه كل زواج يتم ببساطة وسهولة وبلا تشريفات وتعقيدات إلى يوم القيامة، وعلينا إذا أحببنا أن يشملنا هذا الدعاء ويشمل أبناءنا وبناتنا أن نلتزم بذلك ولا نطلب سوى الكفاءة والأهلية من حسن الخلق والتديّن، كما في الحديث الشريف: (إذا جاءكم من ترضون خُلقه ودينه فزوِّجوه) ([٨٢]).

البساطة في أُمور الزواج

ثم دعى رسول الله (ص) علياً (ع) وقال له: هيّىء منزلاً حتى تحوّل فاطمة إليه.

فقال علي (ع): يا رسول الله ما هاهنا منزل إلا منزل حارثة بن النعمان.

فقال رسول الله (ص): والله لقد استحيينا من حارثة بن النعمان، فقد أخذنا عامة منازله، فبلغ ذلك حارثة فجاء إلى رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله أنا ومالي لله ولرسوله، والله ما من شيء أحبّ إليَّ مما تأخذه، والذي تأخذه أحبّ إليّ ممّا تتركه.

فجزّاه رسول الله (ص) خيراً.

ثم فرشوا البيت بالرمل، ونصبوا فيه عوداً يوضع عليه القربة، وستروه بكساء، ونصبوا خشبة من الحائط إلى الحائط للثياب، ثم حُوّلت فاطمة(ع) إلى علي (ع)، ولها من العمر تسع سنين.

وليمة الزفاف

ثم قال رسول الله (ص) لعلي (ع): يا علي اصنع لأهلك طعاماً فاضلاً، فجاء الأصحاب بالهدايا، فأمر النبي (ص) بطحن الحنطة، فطحن وخبز، وذبح الكبش، وجيء بتمر وسمن، فلمّا تهيّأ الطعام قال رسول الله (ص) لعلي (ع): يا علي ادع من أحببت.

---

[٨٢] – وسائل الشيعة: ج ١٤ ص ٥٠ ب ٢٨ ح ١ و ٢ و ٦ عن الرسول (ص).

قال علي (ع): فأتيتُ المسجد وهو غاص بأهله، فناديت: أجيبوا إلى وليمة فاطمة بنت محمد (ص)، فأجابوا وأقبلوا أفواجاً، فأكلوا ورفعوا منها ما أرادوا ولم ينقص من الطعام شيء.

ثم دعا رسول الله (ص) الأواني فملئت ووجه بها إلى منازل أزواجه، ثم أخذ آنية منها وقال: هذه لفاطمة وبعلها (عليهما السلام).

ليلة الزفاف وآدابه

ثم أمر رسول الله (ص) في ليلة الزفاف نساءه وبنات عبدالمطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يصحبن فاطمة(ع) إلى بيت زوجها، وأن يفرحن، ويرتجزن، ويكبّرن، ويحمدن، ولا يقولنّ ما لا يرضي الله تعالى.

ولما دخلن الدار أنفذ رسول الله (ص) إلى علي (ع) ثم دعا فاطمة(ع) فأخذ يدها ووضعها في يد علي (ع) وقال: بارك الله في ابنة رسول الله، يا علي نعم الزوجة فاطمة، ويا فاطمة نعم الزوج علي، ثم قال: يا علي هذه فاطمة وديعتي عندك، ثم رفع يديه بالدعاء وقال:

(اللهمّ اجمع شملهما، وألّف بين قلوبهما، واجعلهما وذرّيتهما من ورثة جنّة النعيم، وارزقهما ذرّية طاهرة طيّبة مباركة، واجعل في ذرّيتهما البركة، واجعلهم أئمّة يهدون بأمرك إلى طاعتك، ويأمرون بما يرضيك، اللهمّ انهما أحبّ خلقك إليّ فأحبّهما واجعل عليهما منك حافظاً، واني أُعيذهما بك وذرّيتهما من الشيطان الرجيم).

ثم خرج (ص) إلى الباب وهو يقول: طهّركما وطهّر نسلكما، أنا سلم لمن سالمكما، وحرب لمن حاربكما، استودعكما الله، وأستخلفه عليكما.

صبيحة ليلة الزفاف

ولما انصرف الجميع من زفاف عليّ وفاطمة (عليهما السلام) باتت أسماء عندهما في البيت، وأصبح الصباح، وجاء رسول الله (ص) إلى زيارتهما وقال: السلام عليكما ءأدخل؟

ففتحت أسماء الباب، فدخل (ص)، فقال (ص) لعلي (ع): يا علي كيف وجدت أهلك؟

قال: نعم العون على طاعة الله.

ثم قال لفاطمة(ع): كيف وجدت بعلك؟

قالت: خير بعل.

ثم جاء (ص) بقدح فيه لبن فقال لفاطمة(ع): اشربي فداك أبوك، وقال لعلي (ع): اشرب فداك ابن عمك([٨٣]).

ثم ذكر لهما بعض الوظائف الزوجية، وقسّم ادارة الشؤون المنزلية إلى قسمين: فأوكل ما هو في البيت إلى فاطمة(ع)، وما هو خارج البيت إلى علي (ع).

ولادة السبطين

لم يمض على زواج علي (ع) من فاطمة الزهراء(ع) التي كان قد بنى بها في ذي الحجة من السنة الثانية من الهجرة النبوية المباركة، إلاّ أقل من سنة حتى وَلَدت(ع) السبط الأكبر الإمام الحسن المجتبى (ع)، وذلك ليلة النصف من شهر رمضان المبارك سنة ثلاث من الهجرة النبوية المباركة.

كما وولدت(ع) السبط الأصغر الإمام الحسين الشهيد (ع) في اليوم الثالث من شهر شعبان المعظم سنة أربع من الهجرة النبوية المباركة.

ولادة الحسن بن علي (ع)

قالت أسماء بنت عميس: لما حملت سيدتي فاطمة (ع) بالحسن بن علي وولدته، جاء النبي (ص) فقال: يا أسماء هلمّي ابني، فدفعته إليه في خرقة صفراء، فقال (ص) وقد أزاحها عنه: يا أسماء ألم أعهد إليكم أن لاتلفّوا المولود في خرقة صفراء؟ فلففته في خرقة بيضاء ودفعته إليه، فأذّن (ص) في اذنه اليمنى وأقام في اليسرى.

ثم قال لعلي (ع): بأيّ شيء سمّيت ابني؟

قال: ما كنت أسبقك باسمه يا رسول الله.

فقال النبي (ص): ولا أسبق أنا باسمه ربّي.

---

[٨٣] – كشف الغمة: ١ / ٣٦٨ ط قم ١٣٨١ هـ: (اشرب فداك ابن عمك).

فهبط جبرئيل (ع) وقال: يا محمّد، العليّ الأعلى يقرؤك السلام ويقول: علي منك بمنزلة هارون من موسى ولا نبيّ بعدك، سمّ ابنك هذا باسم ابن هارون.

فقال (ص): وما اسم ابن هارون؟

قال: شبر.

فقال: لساني عربي.

قال: سمّه الحسن.

قالت أسماء: فسمّاه الحسن، فلمّا كان يوم سابعه عقّ النبي (ص) عنه بكبشين أملحين، عق عنه بيده وهو يقول: (بسم الله عقيقة عن الحسن، اللهم عظمها بعظمه، ولحمها بلحمه، ودمها بدمه، وشعرها بشعره، اللهمّ اجعلها وقاءاً لمحمد وآله)، ثم أعطى القابلة فخذاً ودیناراً، وحلق رأسه(ع)، وتصدّق بوزن الشعر فضّة، وطلى رأسه (ع) بالخلوق([٨٤]) مكان الدم الذي كان الجاهليون يطلون به رأس الوليد، وقال: يا أسماء الدم فعل الجاهلية.

ولادة الحسين بن علي (ع)

قالت أسماء: فلما كان بعد حول ولد الحسين (ع) فجاء النبي (ص) وقال: يا أسماء هلمّي ابني، فدفعته إليه في خرقة بيضاء، فأذّن (ص) في اذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، ووضعه في حجره وبكى.

قالت أسماء: فقلت: ممّ بكاؤك فداك أبي وأُمّي يا رسول الله؟

قال: على ابني هذا.

فقلت: انه ولد الساعة.

قال: تقتله من بعدي الفئة الباغية من بني أُميّة، لا أنالهم الله شفاعتي، ثم قال (ص): يا أسماء لا تخبري فاطمة(ع) بهذا فإنها قريبة عهد بولادته.

ثم قال لعلي (ع): أيّ شيء سمّيت ابني هذا؟

قال: ما كنت لأسبقك باسمه يا رسول الله.

فقال النبي (ص): ولا أسبق باسمه ربّي.

---

[٨٤] – الخلوق: نوع من الطيب فيه صفرة.

فهبط جبرئيل (ع) وقال: يا محمد العليّ الأعلى يقرؤك السلام ويقول: عليّ منك كهارون من موسى ولا نبيّ بعدك، سمّ ابنك هذا باسم ابن هارون.

فقال: وما اسم ابن هارون؟

قال: شبير.

فقال: لساني عربي.

قال: سمّه الحسين.

قالت أسماء: فسمّاه الحسين، فلما كان يوم سابعه عق النبي (ص) عنه بكبشين أملحين، عق عنه بيده وقرأ الدعاء المزبور، ثم أعطى القابلة فخذاً ودیناراً، ثم حلق رأسه وتصدّق بوزن الشعر فضّة، وطلى رأسه بالخلوق وقال: يا أسماء الدم فعل الجاهلية.

مع أحبار اليهود

ونصبت أحبار اليهود ـ غالباً ـ العداوة لرسول الله (ص) بغياً وحسداً وضغناً لما خص الله به العرب من النبوّة، حيث جعلها في ولد اسماعيل، وأخرجها من ولد اسحاق، فقالوا: لا نكون تبعاً لولد اسماعيل أبداً.

هذا مع ان رسول الله (ص) قد كان وادعهم وكتب بينه وبينهم كتاباً على أن لا يعينوا على رسول الله (ص) ولا على أحد من أصحابه بلسان ولا يد ولا بسلاح ولا بكراع في السرّ والعلانية، لا بليل ولا بنهار، والله بذلك عليهم شهيد، فإن فعلوا فرسول الله (ص) في حلّ من سفك دمائهم، وسبي ذراريهم ونسائهم، وأخذ أموالهم.

وكانوا ثلاث قبائل:

١ ـ بنو قينقاع، وقد تولّى أمرهم: (المخيريق).

٢ ـ بنو النضير، وقد تولّى أمرهم: (يحيى بن أخطب).

٣ ـ بنو قريظة، وقد تولّى أمرهم: (كعب بن أسد).

فحاربته الثلاث، فمنّ (ص) على بني قينقاع، وأجلى بني النضير، وقتل بني قريظة. وقد ذكرنا في بعض الكتب: ان مقاتلي بني قريظة الذين قتلوا كانوا قليلين جداً.

هذا وقد نزلت سورة الحشر في بني النضير، وسورة الأحزاب في بني قريظة. وسيأتي الكلام عن القبائل الثلاث في غزواته (ص) وسراياه ان شاء الله تعالى.

كان ابن سلام من علماء اليهود، في المدينة المنوّرة ومن أحبارهم، فلما جاء النبي (ص) إلى المدينة جاء عبدالله بن سلام إليه يسأله عن أشياء قال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهنّ إلاّ نبي: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنّة، وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أُمّه؟

قال (ص): أخبرني به جبرائيل آنفاً.

قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة.

قال (ص): أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنّة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أُمّه.

قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّك رسول الله، وأنّك جئت بحق، وقد علمت اليهود انّي سيّدهم وابن سيّدهم وعالمهم وابن عالمهم، فادعُهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيّ ما ليس فيَّ.

فأرسل نبي الله (ص) إلى اليهود فدخلوا عليه. فقال لهم رسول الله (ص): يا معشر اليهود اتقوا الله، فوالذي لا إله إلاّ هو إنكم لتعلمون أنّي رسول الله حقّاً وأنّي جئتكم بحق، فأسلموا.

قالوا: ما نعلمه، قالوا ذلك للنبي (ص) ثلاث مرّات.

قال (ص): فأيّ رجل فيكم عبدالله بن سلام؟

قالوا: ذاك خيرنا وابن خيرنا، وسيّدنا وابن سيّدنا، وعالمنا وابن عالمنا.

قال: أفرأيتم إن أسلم أتسلمون؟

قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم.

قال: أفرأيتم إن أسلم؟

قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم.

قال: أفرأيتم إن أسلم؟

قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم.

قال (ص): يا ابن سلام اخرج عليهم.

فخرج إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمّداً رسول الله، يا معشر اليهود اتقوا الله فو الله الذي لا إله إلاّ هو إنكم تعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحقّ.

فقالوا: كذبت انك أنت شرّنا وابن شرّنا، وجاهلنا وابن جاهلنا ونقصوه.

فقال ابن سلام: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله، فقد أخبرتك ان اليهود قوم بهت.

المخيريق يعلن اسلامه

وكان الذي تولّى أمر اليهود من بني القينقاع يقال له: (مخيريق)، وكان خيرهم، وكان حبراً عالماً، وكان غنياً كثير الأموال والأملاك، وكان يعرف رسول الله (ص) بصفته وما يجد في علمه، فقال لقومه: تعلمون انه النبي المبعوث فهلمّوا نؤمن به ونكون قد أدركنا الكتابين.

فلم يجبه قينقاع إلى ما دعاهم إليه، وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أُحد وكان يوم السبت قال: يا معشر اليهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق.

قالوا: ان اليوم يوم السبت.

قال: لا سبت لكم.

ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله (ص) وأصحابه بأُحد، وعهد إلى من وراءه من قومه إن قتلت في هذا اليوم فأموالي لمحمد (ص) يصنع فيها ما أراه الله.

فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل، وذلك بعد أن أسلم، فاستلم رسول الله (ص) أمواله ووهبها بأمر من الله تعالى للصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء(ع) وكانت حيطان سبعة.

مع ابني أخطب

عن صفية بنت حُيي أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، ولم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه.

قالت: فلما قدم رسول الله (ص) المدينة ونزل قبا في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حُيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين.

قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس. فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان

الهوينا.

قالت: فهششت اليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمي (أبا ياسر) وهو يقول لأبي (حيي): أهو، هو؟

قال: نعم والله.

قال: تعرفه وتثبته؟

قال: نعم.

قال: فما في نفسك؟

قال: عداوته والله ما بقيت.

مكائد اليهود وتلبيسهم

جاء اليهود إلى المدينة واستوطنوها ليدركوا النبي (ص) فكانوا يستفتحون به على الأوس والخزرج قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة: يا معشر اليهود اتّقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد (ص)، ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته.

فقال سلام بن مشكم أحد بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي نذكره لكم، فأنزل الله تعالى في ذلك: (وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) ([٨٥]).

وقال ابن صلويا لرسول الله (ص): يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بيّنة فنتّبعك لها.

فأنزل الله في ذلك من قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها إِلاَّ الْفاسِقُونَ) ([٨٦]).

وقال رافع بن حريملة ووهب بن زيد: يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرأه،

---

[٨٥] – البقرة: ٨٩.

[٨٦] – البقرة: ٩٩.

وفجّر لنا أنهاراً نتّبعك ونصدقك.

فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ) ([٨٧]).

وكان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد اليهود حسداً للعرب، لما خصّهم الله برسوله (ص)، فكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله تعالى: (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ) ([٨٨]).

ودعا رسول الله (ص) اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم عذاب الله ونقمته، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم منّا وخيراً منا، فأنزل الله تعالى في ذلك: (وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا) ([٨٩]).

اليهود وتأجيج العداوات

وكان شأس بن قيس شيخاً قد عتا، عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم، فمرّ على نفر من أصحاب رسول الله (ص) من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من الفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية.فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة في هذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار.

فأمر فتى شاباً من اليهود كان معه فقال: اعمد إليهم واجلس معهم، ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار.

وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، فكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك أبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، فقتلا جميعاً.

---

[٨٧] – البقرة: ١٠٨.

[٨٨] – البقرة: ١٠٩.

[٨٩] – البقرة: ١٧٠.

ففعل الفتى، فتكلّم القوم عند ذلك وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب . أوس بن قيظى أحد بني حارثة بن الحارث بن الأوس، وجبّار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج . فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها جذعة، فغضب الفريقان جميعاً وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة([٩٠]). السلاح، السلاح.

فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله (ص)، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألّف به بين قلوبكم؟

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوّهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله (ص) سامعين مطيعين، وقد أطفأ الله عنهم كيد عدوّ الله، فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس وما صنع:

(يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ، قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً) ([٩١]).

وأنزل الله سبحانه في أوس بن قيظي وجبار بن صخر وكان معهما من قومهما: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ) ([٩٢])، إلى قوله تعالى: (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) ([٩٣]).

مع ابن أُبيّ وأبي عامر

قدم رسول الله (ص) المدينة وسيد أهلها: عبدالله بن أُبيّ، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام، ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع: أبو عامر عبد بن

---

[٩٠] – والظاهرة: الحرة.

[٩١] – آل عمران: ٩٨ – ٩٩.

[٩٢] – آل عمران: ١٠٠.

[٩٣] – آل عمران: ١٠١.

عمرو بن صيفي بن النعمان وهو أبو حنظلة الغسيل يوم أُحد، وكان قد ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح، وكان يقال له الراهب، فشقيا بشرفهما وضرهما.

أما ابن أُبي فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوّجوه ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله برسوله (ص) وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أنّ رسول الله (ص) قد استلبه ملكه، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل كارهاً مصرّاً على نفاقه وضغنه.

وأما أبو عامر فأبى إلاّ الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام، فخرج إلى مكة ببضعة عشر رجلاً، وكان أبو عامر أتى رسول الله (ص) حين قدم المدينة قبل أن يخرج إلى مكة فقال: ما هذا الدين الذي جئت به؟

قال (ص): جئتُ بالحنيفية دين ابراهيم (ع).

قال: فأنا عليها.

فقال له رسول الله (ص): إنّك لست عليها.

قال: بلى، إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها.

قال (ص): ما فعلتُ، ولكني جئت بها بيضاء نقيّة.

قال: الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً، يعرّض برسول الله (ص) أي: إنّك جئت بها كذلك.

فقال رسول الله (ص): أجل فمن كذب يفعل الله به ذلك.

فكان هو ذلك فقد خرج إلى مكة، فلما فتحت خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها.

في طريق العيادة

وركب رسول الله (ص) إلى سعد بن عبادة يعوده من شكوى أصابته . على حمار عليه إكاف فوقه قطيفة فدكية مختطمة بحبل من ليف . فمرّ بعبدالله بن أُبيّ وهو في ظل (مزاحم) أطمه، وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول الله (ص) نزل فسلّم، ثم جلس فتلا القرآن، وذكّر بالله وحذر، وبشر وأنذر.

قال الراوي: وهو زام لا يتكلّم، حتى إذا فرغ رسول الله (ص) من مقالته قال: يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً، فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدّثه إيّاه، ومن لم

يأتك فلا تغشه به، ولا تأته في مجلسه بما يكره.

فقال عبدالله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين: بلى فاغشنا به وائتنا في مجالسنا ودورنا، فهو والله ممّا نحب، ومما أكرمنا الله به وهدانا.

فقال عبدالله حين رأى من خلاف قومه ما رأى:

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل***تذل ويصرعك الذين تصارع

وهل ينهض البازي بغير جناحه***وإن جذ يوماً ريشه فهو واقع

فقال سعد: يا رسول الله لا يعرض في قلبك من قول هذا شيء، فو الله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوّجه ملكاً علينا، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً أشرف عليه.

عفو رسول الله (ص)

وكان النبي (ص) وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله تعالى، ويصبرون على الأذى، قال الله عزّوجل: (وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) ([٩٤]).

وقال تعالى: (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً) ([٩٥]) إلى قوله تعالى: (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ) ([٩٦]).

وكان النبي (ص) يأخذ بالعفو ما أمره الله حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله (ص) بدراً فقتل الله صناديد كفار قريش قال ابن أُبيّ ومن معه من المشركين عبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا رسول الله (ص) وأسلموا.

تحويل القبلة

وصلّى رسول الله (ص) إلى بيت المقدس ثلاث عشرة سنة بمكة وسبعة عشر شهراً بالمدينة، وكان يعجبه أن تكون قبلته الكعبة تخلّصاً من تعيير اليهود، فحوّل الله القبلة إليها، والنبي (ص) مع المسلمين في الصلاة، فتحوّلوا إلى الكعبة المكرّمة.

---

[٩٤] – آل عمران: ١٨٦.

[٩٥] – البقرة: ١٠٩.

[٩٦] – البقرة: ١٠٩.

فخرج رجل ممّن كان صلّى معه فمرّ على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أُشهد بالله لقد صلّيت مع النبي (ص) قِبَل مكة، فداروا كما هم قِبَل البيت.

وكذلك بينما الناس يصلّون الصبح في مسجد قباء إذ جاءهم رجل فقال: إن النبي (ص) قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، ألا فاستقبلوها، وكان وجه الناس إلى الشام فاستداروا بوجوههم إلى الكعبة.

وكان في جعل القبلة إلى بيت المقدس ثم تحويلها إلى الكعبة حِكَم عظيمة وفتنة وامتحان للمسلمين والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين.

فأما المسلمون فقالوا: (سَمِعْنا وَأَطَعْنا) ([٩٧])، وقالوا: (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا) ([٩٨])، وهم الذين هداهم الله ولم تكن كبيرة عليهم.

وأما المشركون فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا.

وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء.

وأما المنافقون فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجّه، إن كانت القبلة الأُولى حقاً فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان على باطل.

وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال الله: (وَإِنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ) ([٩٩]) وكانت فتنة من الله امتحن بها عباده ليرى من يتبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه، فأنزل الله جواب السفهاء: (...قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) ([١٠٠]).

صلاة الإستسقاء

وفي شهر رمضان المبارك سنة ست من الهجرة النبوية المباركة صلّى رسول الله (ص) بالناس صلاة الإستسقاء بكيفيتها الخاصة، فلما قضى صلاته جثا على ركبتيه ورفع يديه نحو

---

[٩٧] – البقرة: ٢٨٥.

[٩٨] – آل عمران: ٧.

[٩٩] – البقرة: ١٤٣.

[١٠٠] – البقرة: ١٤٢.

السماء ثم كبّر وقال: (اللهمّ اسقنا وأغثنا) إلى آخر الدعاء المأثور.

فما أن تمّ دعاءه (ص) حتى أمطرت السماء عليهم مطراً غزيراً وصارت المدينة والسحاب عليها كالفسطاط.

عندها تبسَّم رسول الله (ص) وقال: لله درّ أبي طالب، لو كان حيّاً قرّت عيناه، من الذي ينشدنا قوله؟

فقام علي بن أبي طالب (ع) وقال: يا رسول الله كأنّك أردت:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه***ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاّك من آل هاشم***فهم عنده في نعمة وفواضل

كذبتم وبيت الله نبزى محمداً***ولما نقاتل دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرّع حوله***ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فقال رسول الله (ص): أجل. فقام عندها رجل من كنانة وقال:

لك الحمد والشكر ممّن شكر***سقينا بوجه النبي المطر

وكان كما قاله عمّه***أبو طالب أبيض ذو غرر

به الله يسقي صوب الغمام***وهذا العيان لذاك الخبر

فقال رسول الله (ص): إن يك شاعراً أحسن فقد أحسنت.

ثم استمرت السماء تهطل عليهم حتى جاءوا وقالوا: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يصرفها عنّا، فرفع يديه وقال: (حوالينا ولا علينا، اللهمّ على رؤوس الظراب، ومنابت الشجر، وبطون الأودية، وظهور الآكام).

فتصدعت عن المدينة، تمطر مراعيها ولا تمطر فيها قطرة.

فصل

في غزواته وسراياه (ص)

الإذن في الحرب الدفاعية

ولما استقر رسول الله (ص) بالمدينة كما تقدّم، وأيّده الله بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدّموا محبّته على محبّة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، ففرض الله على المسلمين القتال . بعد ذلك . لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، فقال تعالى: (وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ) ([١٠١]).

آداب وسنن

وكان (ص) يستحب القتال أول النهار كما يستحب الخروج للسفر أوله، فإذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهبّ الرياح وينزل النصر.

وكان يبايع أصحابه في الحرب على أن لايفرّوا، وربما بايعهم على الموت، وبايعهم على الجهاد، كما بايعهم على الإسلام، وبايعهم على الهجرة قبل الفتح، وبايعهم على التوحيد والتزام طاعة الله ورسوله.

وبايع (ص) نفراً من أصحابه على أن لايسألوا الناس شيئاً، فكان السوط يسقط من يد أحدهم فينزل فيأخذه ولا يقول لأحد ناولني إياه.

وكان (ص) يشاور أصحابه في الجهاد ولقاء العدوّ و تخيّر المنازل.

وفي حديث: ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله (ص).

وكان (ص) يتخلّف في ساقتهم في المسير فيزجي الضعيف ويردف المنقطع، وكان أرفق الناس بهم في السير.

---

[١٠١] – البقرة: ١٩٠.

وكان (ص) إذا أراد غزوة ورّى بغيرها ليقل القتل، وكان يبعث العيون يأتونه بخبر عدوّه، ويطلع الطلائع ويبث الحرس.

وكان (ص) إذا لقى عدوّه وقف ودعا واستنصر، وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله، وخفضوا أصواتهم.

وكان (ص) يرتب الجيش والمقاتلة، ويجعل في كل جنبة كفؤاً لها.

وكان (ص) يبارز بين يديه بأمره.

وكان (ص) يلبس للحرب عدة، وربما ظاهر بين درعين.

وكان (ص) له الأولوية.

وكان (ص) إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثاً ثم قفل.

وكان (ص) يستحب للرجل أن يقاتل تحت راية قومه.

وكان (ص) إذا لقى العدو يقول: (اللهمّ مُنزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وزلزلهم، اللهمّ أنزل نصرك، اللهمّ أنت عضدي ونصيري، بك أُقاتل).

وكان (ص) إذا اشتدّ البأس وحمى الحرب وقصده العدو يعلم بنفسه ويقول: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب).

وكان (ص) إذا اشتدّ البأس اتقوا به، كما قال علي (ع) في نهج البلاغة: (كنا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله (ص)، فلم يكن أحد أقرب منّا إلى العدوّ منه).

وكان (ص) أقربهم إلى العدو.

وكان (ص) يجعل لأصحابه شعاراً في الحرب ورمزاً يعرفون به إذا تكلّموا.

وكان (ص) ينهى عن قتل النساء والولدان والشيوخ ونحوهم.

وكان (ص) إذا بعث سرية يوصيهم بتقوى الله ويقول: (سيروا بسم الله، قاتلوا من كفر بالله، ولاتمثلوا، ولاتغدروا، ولاتقتلوا وليداً).

وكان (ص) ينهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو . ولعله حتى لا يقع القرآن في أيديهم فيبيحوا حرمته ..

وكان (ص) يأمر أمير سريته أن يدعو عدوّه قبل القتال إما إلى الإسلام والهجرة، أو الإسلام دون الهجرة ويكونوا كأعراب المسلمين ليس لهم في الفيء نصيب، أو بذل الجزية،

فإن أجابوا إليه قبل منهم، وإلا استعان بالله وقاتلهم.

وكان (ص) إذا ظفر بعدوّه أمر منادياً فجمع الغنائم كلها، فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها، ثم أخرج خمس الباقي فوضعه حيث أراه الله وأمر به: من مصالح المسلمين، ثم يرضخ من الباقي لمن لاسهم له من النساء والصبيان والعبيد، ثم يقسم الباقي بالسوية بين الجيش: للفارس ثلاثة أسهم له سهم وسهمان لفرسه، وللراجل سهم.

وكان (ص) يسوّي بين الضعيف وغيره في القسمة ما عدا النفل.

النبي (ص) وانقسام الكفار عليه

ولما قدم رسول الله (ص) إلى المدينة، وأرسى فيها قواعد الإسلام صار الكفار معه على ثلاثة أقسام:

قسم: صالحوه على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه.

وقسم: حاربوه ونصبوا له العداوة.

وقسم: تاركوه واتّخذوا موقف الحياد فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما ينتهي إليه أمره، وما يكون مصيره، وكان بين هؤلاء من يحب ظهوره وانتصاره باطناً، وإن لم يعلن بذلك.

أوّل سريّة في الإسلام

وحيث ان مشركي قريش قد نصبوا الحرب للمسلمين، وصادروا في مكة الأموال المنقولة وغير المنقولة للمسلمين الذين هاجروا إلى المدينة، وحاولوا أيضاً فرض حصار اقتصادي وسياسي على المدينة نفسها ليعرقلوا مسيرة النبي (ص) التقدمية، ويصدّوا زحف المسلمين وانتشار الإسلام من المدينة إلى غيرها من المناطق الأُخرى، فكر النبي (ص) . بعد أن أذن الله له بمجابهة المشركين عسكرياً . في أن يكسر جبروت المشركين، ويفك حصارهم، ويرغمهم على إعادة النظر في مواقفهم العدائية تجاه الإسلام والمسلمين.

فرأى أن يتعرض لهم بتهديدهم، وذلك ببعث السرايا إليهم، أو غزوهم بنفسه (ص)، علماً بأن الغزوة فرقها مع السريّة هو: ان الغزوة كان يشترك فيها رسول الله (ص) بنفسه، دون السرية، فإنه كان يؤمّر عليها أحداً من المسلمين.

وكانت الغزوات ـ على رواية ـ تعدّ (٢٧) غزوة، بينما السرايا بلغت (٦٦) سرية.

وأول سرية بعثها رسول الله (ص) في هذا المجال كانت بعد مضي ثمانية أشهر من الهجرة النبوية المباركة، فقد عقد (ص) اللواء لعمّه حمزة بن عبدالمطلب وأمّره على ثلاثين رجلاً من المهاجرين ممّن تحمّل الأذى والتعذيب القاسي من مشركي مكّة، وممّن صودرت أمواله على أيديهم، وبعثهم إلى سواحل البحر الأحمر، فالتقوا هناك في (العيص) من أرض جهينة بأبي جهل وهو في مائة وثلاثين راكباً من أهل مكّة في قافلة تجارية، فاصطفّ الفريقان للقتال، فحجز بينهما (مجدي بن عمرو الجهني) وكان موادعاً للفريقين جميعاً، فانصرف القوم بعضهم عن بعض، ولم تقع مناوشات بينهم.

سرية عبيدة بن الحارث

وكانت هذه السرية متزامنة مع سرية حمزة بن عبدالمطلب، فقد عقد رسول الله (ص) اللواء لعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب بن عبدمناف في ستّين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، فسار حتى بلغ ماءاً بالحجاز بأسفل (ثنية المرة).

فلقي بها أباسفيان بن حرب في مائتين من أهل مكّة، فكانت بينهم الرماية دون أن يقع قتال بينهم، غير انه التحق بالمسلمين رجلان ممّن خرج مع المشركين كانا قد أسلما من قبل إلا أنهما لم يتمكّنا من الإلتحاق بالمسلمين، فجعلا ذلك وسيلة للإلتحاق بهم والتخلّص من المشركين وهما: المقداد بن عمرو البهراني، وعتبة بن غزوان المازني.

سريّة سعد

وفي شهر ذي القعدة في السنة الأُولى من الهجرة النبوية المباركة بعث رسول الله (ص) سريّة ثالثة تتشكّل من تسعة رجال من المهاجرين يرأسهم سعد بن أبي وقاص، ليرصدوا المشركين في تحرّكاتهم التجارية، فخرجوا حتى بلغوا موضعاً يقال له: (الخرّار) من أرض الحجاز، فلم يلقوا كيداً ورجعوا إلى المدينة.

غزوة الأبواء

وفي شهر صفر من السنة الثانية من الهجرة النبوية المباركة، أي: على رأس اثني عشر

شهراً من مقدم رسول الله (ص) إلى المدينة خرج (ص) مع جماعة من أصحابه بعد أن عقد اللّواء لعليّ بن أبي طالب (ع) واستعمل على المدينة سعد بن عبادة حتى بلغ ودان . وهي غزوة الأبواء . يريد قريشاً وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فوادع فيها بني ضمرة، وعقد تلك المعاهدة معه سيد بني ضمرة (مخشى بن عمرو الضمري) وكان سيدهم في زمانه ذلك.

ثم رجع رسول الله (ص) إلى المدينة ولم يلق كيداً، فأقام بها بقية صفر وصدراً من ربيع الأول.

غزوة بَواط

ثم خرج رسول الله (ص) في أواسط ربيع الأول من السنة الثانية من الهجرة النبوية المباركة في مائتين من أصحابه، وذلك بعد أن استعمل على المدينة السائب بن مظعون، وقيل: سعد بن معاذ، يريد (ص) قريشاً حتى بلغ (بواط) من ناحية رضوى([١٠٢])، فلم يظفر بقافلة قريش التي كان على رأسها (أُمية بن خلف) في مائة رجل من المشركين.

ثم رجع (ص) إلى المدينة ولم يلق كيداً، فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادي الأُولى.

غزوة ذات العشيرة

ثم في أواسط شهر جمادى الأُولى خرج رسول الله (ص) من المدينة، وقد حمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، واستخلف على المدينة أباسلمة بن عبدالأسد، وذلك في مائة وخمسين من أصحابه، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها ويتعرضون عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام، وكان قد جاءه الخبر بفصولها مع أبي سفيان من مكة، وفيها أموال لقريش، حتى بلغ (ص) (ذات العشيرة) فبلغه الخبر بأنّ العير قد فاتته بأيام، وهذه هي التي وعده الله إيّاها، أو ذات الشوكة، ووفى له بوعده، وفيها وادع بني مدلج وعقد معهم معاهدة عدم اعتداء.

وفي هذه الغزوة نزل رسول الله (ص) بأصحابه عند عين، فنام علي (ع) وعمّار هناك في

---

[١٠٢] – بقرب ينبع على بعد ما يقارب تسعين كيلو متراً من المدينة.

دقعاء من التراب، فأيقظهما رسول الله (ص) وحرّك علياً (ص) فقال له: قم يا أباتراب . سمّاه (ص) بذلك لما عليه من التراب . ثم قال: ألا أُخبرك بأشقى الناس؟ أحمر ثمود عاقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه، ووضع رسول الله (ص) يده على رأسه الشريف، حتى يبلّ منها هذه، ووضع (ص) يده على لحيته الكريمة.

وأراد رسول الله (ص) بهذه الغزوات:

أوّلاً: التحالف مع العشائر.

وثانياً: ارهاب قريش، لما سبق من انهم فرضوا حصاراً اقتصاديّاً على المدينة.

غزوة بدر الأُولى

لما رجع رسول الله (ص) إلى المدينة قادماً من غزوة (ذات العشيرة) لم يبق فيها إلاّ ليال قلائل لا تبلغ العشر، حتّى أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة فاستاقه، فخرج رسول الله (ص) في طلبه، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة حتى بلغ وادياً يقال له: (سفوان) في ناحية بدر ففاته كرز، فرجع رسول الله (ص) إلى المدينة ولم يلق حرباً.

سريّة عبد الله بن جحش

ثم رجع رسول الله (ص) إلى المدينة فأقام بها بقية جمادي الآخرة ورجباً، وفي رجب المذكور بعث عبدالله بن جحش الأسدي إلى نخلة، وذلك في اثني عشر رجلاً من المهاجرين كل اثنين يعتقبان على بعير، وقال: كن بها حتى تأتينا بخبر من أخبار قريش، ولم يأمره بقتال، فوصلوا إلى بطن نخلة يرصدون عيراً لقريش.

وكان رسول الله (ص) قد كتب له كتاباً وأمره أن لاينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه.

فلما فتح الكتاب وجد فيه: (إذا نظرت إلى كتابي هذا فامض حتى تنزل بنخلة بين مكة والطائف فترصد بها عيراً لقريش وتعلم لنا من أخبارهم).

فقال لما قرأ الكتاب: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك وأنه لايستكرههم، فمن أحبّ الشهادة فليمض معه، ومن كره الموت فليرجع.

فمضوا كلهم حتى إذا نزلوا نخلة مرت بهم عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة، فيها عمرو

بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبدالله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة.

فتشاور المسلمون فيهم وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم أجمعوا على ملاقاتهم، فرمى أحدهم وهو واقد بن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل فأعجزهم، ثم قدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة.

الشهر الحرام والقتال فيه

فلما قدموا على رسول الله (ص) قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، وتوقف عن تأييدهم وامضاء عملهم، وانتظر تأييد الله تعالى وامضائه لهم عبر أمين وحيه جبرئيل (ع)، وذلك لأهميّة المسألة.

فلما توقف رسول الله (ص) عن استلام العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً وهو بانتظار الوحي، أسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين.

واشتدّ تعنّت قريش وإنكارهم ذلك، وزعموا أنهم وجدوا مقالاً وقالوا: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام.

وتفاءلت اليهود على رسول الله (ص) بذلك فقالوا: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبدالله، (عمرو): عمرت الحرب، و(الحضرمي): حضرت الحرب، وواقد: وقدت الحرب، فجعل الله ذلك عليهم لا لهم، فأنزل على رسوله:

(يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَإِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ) ([١٠٣]).

بوادر النصر

فلما نزل القرآن بذلك انحسمت المسألة وانقطع النزاع فيها، فقد فرج الله عن المسلمين، واستلم رسول الله (ص) العير وما فيها من أموال وقسمها بين المسلمين، وكانت هذه أول

[١٠٣] – البقرة: ٢١٧.

غنيمة للمسلمين، وأول انتصار سجّله المسلمون على المشركين بعد خمسة عشر عاماً سجّل المشركون فيها كل ما استطاعوه من ظلم وتعذيب، وتشريد وتهجير، ونهب وسلب، وضغط وكبت.

وأما الأسيران: فأرسلت قريش في فدائهما، وحيث كان رجلان من هذه السرية قد أسرتهما قريش أيضاً قال رسول الله (ص) لموفدها: لن نفديهما حتى يقدم صاحبانا، إنّا نخاف عليهما.

فأطلقت قريش سراح الأسيرين ومع وصولهما إلى المدينة أُطلق سراحهما.

فأما أحد الأسيرين وهو: الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله (ص) حتّى قُتِل يوم بئر معونة.

وأما الثاني وهو: عثمان بن عبدالله فلحق بمكة، فمات بها كافراً.

فلما تجلى عن عبدالله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن طمعوا في الأجر فقالوا: يا رسول الله إنا نطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين.

فأنزل الله فيهم: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ) ([١٠٤]).

سرية عمير بن عدي

ولما خلت من شهر رمضان خمس ليال وعلى رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة النبوية المباركة كانت سرية عمير بن عدي، إلى عصماء بنت مروان اليهودي، أُم المنذر بن المنذر، وكانت عصماء تعيب المسلمين، وتؤذي رسول الله (ص) وتمشي في مجالس الأوس والخزرج وتقول شعراً تحرّض عليه، والشعر يؤثر أثره في اظهار الضغائن واثارة الحروب آنذاك، وقد قال تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) ([١٠٥]).

فلمّا نفّذ عمير مهمّته أتى فصلّى الصبح مع النبي (ص) بالمدينة وأخبره الخبر، فضرب رسول الله (ص) على كتفه وقال: هذا رجل نصر الله ورسوله بالغيب، أما انه لاينتطح فيها

---

[١٠٤] – البقرة: ٢١٨.

[١٠٥] – الحج: ٣٩.

عنزان، كناية عن انه لايتنازع من أجلها أحد، وكان كذلك.

غزوة بدر الكبرى

ولما عادت سرية عبدالله بن جحش إلى المدينة في شهر شعبان، أمضى رسول الله (ص) بعده في المدينة بقية شهر شعبان وشيئاً من شهر رمضان، ثم وصله (ص) خبر رجوع قافلة قريش التي كان فيها أبو سفيان عائدة من الشام فخرج إليها مع أصحابه.

وكان خروجهم يوم السبت لإثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، على رأس تسعة عشر شهراً، وقيل: لثمان خلون منه.

واستخلف (ص) على المدينة أبا لبابة، وعيّن للصلاة بالناس عبدالله بن أُم مكتوم، وخرج معه الأنصار، ولم تكن قبل ذلك خرجت معه، وكانت من غير قصد من المسلمين إليها ولا ميعاد، كما قال تعالى: (وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ) ([١٠٦]).

وذلك أنّ رسول الله (ص) بلغه خبر العير المقبلة من الشام مع أبي سفيان في أربعين رجلاً، وفيها أموال عظيمة لقريش، وهي التي خرج إليها عند فصولها من مكة، فلم يدركها، فندب في هذه المرة أصحابه إليها، فخف بعض أصحابه وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله (ص) يلقى حرباً.

فخرج (ص) فيهم وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وهم اثنان وثمانون من المهاجرين، ومائة وسبعون من الخزرج، وواحد وستون من الأوس، وكانوا على سبعين بعيراً يعتقبونها، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرَسان: فرساً للمقداد، وفرساً للزبير بن العوام، فكان رسول الله (ص) وعلي بن أبي طالب (ع) ومرثد بن أبي مرثد الغنوي على بعير.

فلما بلغ أبا سفيان مسيره (ص) أحجم عن الإقتراب من بدر واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري بعشرة دنانير على أن يأتي قريشاً بمكة فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد اعترض لعيرهم في أصحابه.

فنهضوا مسرعين في قريب من ألف مقاتل، ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير، ولم يتخلف أحد من أشرافهم، إلا أبا لهب وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة كان له دين بذلك،

---

[١٠٦] – الأنفال: ٤٢.

وحشدوا فيمن حولهم من العرب، ولم يتخلف من بطون قريش سوى عدي بن كعب.

وخرجوا من ديارهم كما قال الله تعالى: (بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ) ([107]) وقالوا: أيظنّ محمّد وأصحابه أن نكون كعير ابن الحضرمي؟ فخرجوا سراعاً وأخرجوا معهم القيان يشربون الخمور، ويضربون بالدفوف.

إلى وادي ذفران

وأقبل رسول الله (ص) فيمن خف معه من أصحابه قاصداً وادي ذفران، وقد عقد رايتين جعل إحداهما مع مصعب بن عمير، والأُخرى . وتسمّى العقاب . مع علي بن أبي طالب (ع) وسلك طريقه من المدينة إلى ذفران ومنه إلى بدر على نقب المدينة، ثم على العقيق، ثم على ذي الحليفة، ثم على اولات الجيش، ثم على تربان، ثم على ملل، ثم على غميس الحمام، ثم على صخرات اليمام، ثم على السيالة، ثم على فج الروحاء، ثم على شنوكة، حتى إذا كان بعرق الظبية لقوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبراً.

ونزل رسول الله (ص) سجسج وهي بئر الروحاء، ثم ارتحل منها حتى إذا كان بالمنصرف ترك طريق مكة يساراً وسلك ذات اليمين على النازية يريد بدراً، فسلك في ناحية منها حتى جزع وادياً يقال له: رحقان، بين النازية وبين مضيق الصفراء، ثم علا المضيق ثم انصب به، حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بسيس بن عمرو الجهني حليف بني ساعدة، وعدي بن أبي الزغباء الجهني حليف بني النجار يتجسّسان الأخبار عن أبي سفيان وعيره، ثم رحل (ص) وأخذ ذات اليمين على وادي ذفران وجزع، ثم نزل ذفران.

النبي (ص) يستشير أصحابه

ولما نزل (ص) بأصحابه ذفران أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، ونزل عليه جبرئيل فأخبره بأن العير قد أفلتت، وانّ قريشاً قد أقبلت لمنع عيرها وأمره بالقتال.

فاستشار أصحابه في ذلك وأخبرهم عن قريش وخروجهم إليهم، فقام المقداد بن الأسود وقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل

---

[107] – الأنفال: ٤٧.

لموسى: (فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ) ([108]) ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى برك الغماد . وهو موضع باليمن . لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، ولو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس لخضناه معك.

فقال له رسول الله (ص) خيراً ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله (ص): أشيروا عليَّ أيها الناس، وانما يريد الأنصار، ثم أعادها ثانية وثالثة، ففهمت الأنصار انه يعنيهم، فقام سعد بن معاذ الأنصاري وقال: لكأنّك يا رسول الله تريدنا؟

فقال النبي (ص): أجل.

فقال سعد: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله إنّا قد آمنّا بك وصدقناك وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق من عند الله، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تقرُّ به عينك، فسر على بركة الله، وصل من شئت، واقطع من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحبّ إلينا ممّا تركت.

فسرّ رسول الله (ص) بقول سعد، وشكره والأنصار على ذلك.

ثم قال (ص): سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ولن يخلف الله وعده، والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم، ثم ارتحل (ص) بهم ونزل قريباً من بدر.

استطلاع أخبار قريش

ولمّا نزل (ص) بأصحابه قريباً من بدر، ركب هو ورجل من أصحابه حتّى وقف على شيخ من العرب، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم.

فقال: لا أُخبركما حتى تخبراني من أنتما.

---

[108] – المائدة: ٢٤.

فقال له رسول الله (ص) إذا أخبرتنا أخبرناك.

قال: أو ذاك بذاك؟

قال: نعم.

قال: فإنه بلغني أنّ محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا . المكان الذي به رسول الله (ص) . وبلغني أنّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، المكان الذي به قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟

فقال رسول الله (ص): نحن من ماء، ثم انصرف عنه ورجع إلى أصحابه.

فلما أمسى بعث جماعة إلى ماء بدر يلتمسون الخبر، فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج وعريض بن يسار غلام بني العاص بن سعيد فأتوا بهما فسألوهما لمن أنتما؟ ورسول الله (ص) قائم يصلّي.

فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء.

فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما حتى قالا إنهما لأبي سفيان فتركوهما، وذلك على عادتهم في الجاهلية حيث كانوا يأخذون الإعتراف بالتعذيب، فنهى الإسلام عنه نهياً باتاً وحرّمه أشد تحريم، وجعل الإعتراف المأخوذ بالتعذيب كالعدم، ولذا نرى انّ رسول الله (ص) انفتل من صلاته والتفت إلى أصحابه معترضاً عليهم وقال: إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما؟ صدقا والله، إنهما لقريش.

ثم التفت إليهما وقال: أخبراني عن قريش.

قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، والكثيب: التلّ من الرمل.

فقال لهما رسول الله (ص): كم القوم؟

قالا: كثير.

قال (ص): ما عدّتهم؟

قالا: ما ندري.

قال (ص): كم ينحرون كل يوم؟

قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً.

قال رسول الله (ص): القوم ما بين التسعمائة والألف.

ثم قال (ص) لهما: فمن فيهم من رؤوس قريش؟

قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبوجهل بن هشام، وأُمية بن خلف، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو.

فأقبل رسول الله (ص) على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

هروب أبي سفيان

وخفض أبو سفيان فلحق بساحل البحر، ولما رأى أنه قد نجا وأحرز العير كتب إلى قريش يخبرهم بهروبه وسلامة العير، فأتاهم الخبر وهم بالجحفة فهمّوا بالرجوع، فقال أبوجهل: والله لانرجع حتى نقدم بدراً فنقيم به، فننحر الإبل ونطعم من حضرنا من العرب الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فتخافنا بعد ذلك.

وأشار الأخنس بن شريق عليهم بالرجوع فعصوه، فرجع هو وبنو زهرة، فلم يشهد بدراً زهري قط، فاغتبطت بنو زهرة بعد برأي الأخنس، فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً، وكان حليفاً لهم.

ليلة بدر

ولما كانت ليلة بدر وهي ليلة السابع عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية من الهجرة المباركة انتدب رسول الله (ص) أصحابه، وقد نزل بهم قريباً من بدر إلى الماء فسكتوا وأحجموا عن ذلك، فانتدب علياً (ع) فخرج، وكانت ليلة باردة ذات ريح وظلمة، فخرج (ع) بقربته، فلما كان إلى القليب لم يجد دلواً، فنزل في الجبّ تلك الساعة فملأ قربته ثم أقبل فاستقبلته ريح شديدة، فجلس حتى مضت، ثم قام، ثم مرت به أُخرى، فجلس حتى مضت، ثم قام، ثم مرت به أُخرى، فجلس حتى مضت، ثم قام، فلما جاء إلى النبي (ص) قال له: ما حبسك يا أبا الحسن؟

قال: لقيت ريحاً، ثم ريحاً، ثم ريحاً شديدة، فأصابتني قشعريرة.

فقال: أتدري ما كان ذاك يا علي؟ كان ذلك جبرئيل في ألف من الملائكة، وقد سلّم عليك وسلّموا، ثم مرّ ميكائيل في ألف من الملائكة فسلّم عليك وسلّموا، ثم مرّ إسرافيل في ألف من الملائكة فسلّم عليك وسلّموا، وهم مدد لنا.

وإليه أشار السيد الحميري في قصيدته المعروفة يمدح بها علياً (ع) ويقول:

اقسم بالله وآلائه***والمرء عما قال مسؤول
ان علي بن أبي طالب***على التقى والبرّ مجبول
كان إذا الحرب مرتها القنا***وأحجمت عنها البهاليل
يمشي إلى القِرن وفي كفّه***أبيض ماضي الحدّ مصقول
مشي العفرنا بين اشباله***أبرزه للقنص الغيل
ذاك الذي سلم في ليلة***عليه ميكال وجبريل
ميكال في ألف وجبريل***في ألف ويتلوهم سرافيل
ليلة بدر مدداً أُنزلوا***كأنهم طير أبابيل

التشاور يهدي إلى التفوّق

ثم سار رسول الله (ص) حتى نزل مياه بدر، وكانت منطقة بدر واسعة، جنوبها العدوة القصوى، وشمالها العدوة الدنيا، وفيها عدّة آبار وعيون للماء، تنزل فيها القوافل.

فسبق رسول الله (ص) قريشاً إلى بدر، ومنع قريشاً من السبق إليه مطر عظيم أرسله الله تعالى مما يليهم ولم يصب منه المسلمين إلا ما لبّد لهم دهس الوادي وأعانهم.

ولما نزل (ص) مياه بدر مما يلي المدينة أتاه الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح فقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل هو منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخّر عنه، أم هو الرأي في الحرب؟

فقال (ص) في جوابه: بل هو الرأي.

فقال: يا رسول الله (ص) إنّ هذا ليس بمنزل، فانهض بنا حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ونغوّر ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه فيكون الماء في متناولنا فنشرب ونروى.

فاستحسن رسول الله (ص) هذا الرأي وفعله، فكان سبباً من أسباب تفوّقهم على

المشركين.

ومشى رسول الله (ص) بعد أن استقرّ هو وأصحابه في مواقعهم على موضع الوقعة فعرض على أصحابه مصارع رؤوس الكفر من قريش مصرعاً مصرعاً وهو يقول: هذا مصرع فلان إن شاء الله، وهذا مصرع فلان إن شاء الله، وهكذا.

الجمعان يلتقيان

وفي صبيحة اليوم السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة النبوية المباركة انحدر المشركون من وراء الكثيب إلى وادي بدر، فلما رآهم رسول الله (ص) ينحدرون من وراء الكثيب الذي جاءوا منه إلى الوادي رفع يديه بالدعاء وقال:

(اللهمّ هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها، تحادّك وتكذِّب رسولك، اللهمّ فنصرك الذي وعدتني به، اللهمّ أحِنهم الغداة) ثم عبّأ رسول الله (ص) أصحابه وقال: غضّوا أبصاركم، ولا تبدأوهم بالقتال، ولا يتكلّمن أحد.

فلمّا نزل المشركون الوادي أقبل نفر منهم حتى وردوا حوض رسول الله (ص) فأراد بعض أن يمنعوهم. فقال رسول الله (ص): دعوهم، فشربوا منه.

وقال أبو جهل لما رأى قلّة المسلمين وبساطة أسلحتهم: ما هم إلا أكلة رأس، لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد.

فقال عتبة بن ربيعة: أترى لهم كميناً ومدداً؟

فبعثوا عمرو بن وهب الجمحي وقالوا له: احزر لنا أصحاب محمد، وكان فارساً شجاعاً، فجال بفرسه حول العسكر، ثم صعد في الوادي وصوّب ثم رجع إلى قريش فقال: ثلاثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصونه، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد، فضرب في بطن الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً، فرجع اليهم فقال: ما رأيت شيئاً، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، أما ترونهم خرس لا يتكلّمون، يتلمضون تلمض الأفاعي، انهم قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فارتأوا رأيكم.

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس فأتى عتبة بن ربيعة فأشار عليه أن يرجع

الناس ولا يكون بينهم حرب، فوافقه عتبة بن ربيعة، وقام عتبة في الناس خطيباً وأشار عليهم بالرجوع، فأبى أبو جهل ذلك وساعده عليه المشركون.

بوادر الهزيمة في المشركين

ولما كان من دأب الإسلام وسيرة رسوله العظيم (ص) وأهل بيته المعصومين (عليهم السلام)، أن لا يبدأوا أحداً بالقتال، لذلك بعث رسول الله (ص) إلى قريش من يقول لهم: يا معشر قريش ما أحد أبغض إليَّ من أن أبدأ بكم، فخلّوني والعرب، فإن أك صادقاً فأنتم أعلى بي عيناً، وإن أك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمري فارجعوا.

فقال عتبة: والله ما أفلح قوم قطّ ردّوا هذا.

ثم ركب جملاً له أحمر، فنظر إليه رسول الله (ص) يجول في العسكر وينهى عن القتال، فقال (ص): إن يكن عند أحد خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا.

فأقبل عتبة يقول: يا معشر قريش اجتمعوا واسمعوا، ثم خطبهم فقال: يمن مع رحب، ورحب مع يمن، يا معشر قريش أطيعوني اليوم، واعصوني الدهر، وارجعوا إلى مكة واشربوا الخمور، وعانقوا الحور، فإنّ محمّداً له إلّ وذمّة وهو ابن عمّكم، فارجعوا ولا تردّوا رأيي، وانما تطالبون محمّداً بالعير التي أخذها بنخلة ودم ابن الحضرمي وهو حليفي وعليَّ عقله.

فلما سمع أبوجهل ذلك غاظه وقال: ان عتبة أطول الناس لساناً وأبلغهم في الكلام، ولئن رجعت قريش بقوله ليكوننّ سيّد قريش إلى آخر الدهر.

ثم قال: يا عتبة نظرت إلى سيوف بني عبدالمطلب وجبنت، وتأمر الناس بالرجوع؟

فأخذه عتبة بشعره، وكان أبوجهل على فرس، فقال الناس: يقتله، فعرقب فرسه فقال: أمثلي يجبن؟ وستعلم قريش اليوم أيّنا الألئم والأجبن، وأينا المفسد لقومه، لايمشي إلا أنا وأنت إلى الموت عياناً، ثم أخذه بشعره يجرّه.

فاجتمع الناس إليه وقالوا: يا أبا الوليد لاتفتّ في اعضاد الناس تنهى عن شيء تكون أوله، فخلصوا أباجهل من يده.

فبعث من فوره إلى عامر أخي عمرو بن الحضرمي الذي قتل بنخلة وقال له: هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس، فقم وانشد خفرتك ودم أخيك.

فقام عامر وكشف عن رأسه وصاح: واعمراه، فهاج الناس وأجمعوا على الحرب.

ولما انتهى الأمر إلى ما انتهى إليه، نظر عتبة إلى أخيه شيبة وإلى ابنه الوليد وقال لهما: قوما ثم لبس درعه وطلبوا له بيضة تسع رأسه فلم يجدوها لعظم هامته، فاعتجر بعمامتين ثم أخذ سيفه وتقدّم هو وأخوه وابنه حتى انفصلوا من الصف ونادوا: ليخرج إلينا أكفاؤنا من قريش.

فخرج إليهم فتية من الأنصار وهم: عوف، ومعوذ، ابنا حارث ـ وأُمهما عفراء ـ وعبدالله بن رواحة.

فقالوا: من أنتم؟

قالوا: رهط من الأنصار.

قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديهم: يا محمّد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

فقال رسول الله (ص): قم يا عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان له سبعون سنة، وقم يا حمزة بن عبدالمطلب، وقم يا علي بن أبي طالب، وكان أصغرهم سنّاً، فقاموا بين يدي رسول الله (ص) بسيوفهم.

فقال لهم: اطلبوا بحقّكم الذي جعله الله لكم، فقد جاءت قريش بخيلائها وفخرها تريد أن تطفيء نور الله، (وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ) ([١٠٩]).

ثم قال: يا عبيدة عليك بعتبة، ويا حمزة عليك بشيبة، ويا علي عليك بالوليد بن عتبة.

فمرّوا حتى انتهوا إلى القوم.

فقال عتبة: من أنتم انتسبوا حتى نعرفكم؟

فعرّفوا أنفسهم.

فقالوا: أنتم أكفاء كرام.

فبارز عبيدة ـ وكان أسنَّ القوم ـ عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي (ع) الوليد.

فأمّا حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله.

وأمّا علي (ع) فلم يمهل الوليد أن قتله.

---

[١٠٩] – التوبة: ٣٢.

واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه، فكرّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فدفّفا عليه، واحتملا صاحبهما حتى أتيا به رسول الله (ص) وبه رمق، فلما نظر إليه رسول الله (ص) استعبر.

فقال عبيدة: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله ألستُ شهيداً؟

فقال (ص): بلى أنت أول شهيد من أهل بيتي.

فقال: أما لو كان عمك حياً لعلم اني أولى بما قال.

قال: وأيّ أعمامي تعني؟

قال: أبو طالب (ع) حيث يقول:

كذبتم وبيت الله نبزى محمداً***ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرّع حوله***ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فقال له رسول الله (ص): أما ترى ابنه كالليث العادي بين يدي الله ورسوله، وابنه الآخر في جهاد الله بأرض الحبشة؟

جنود الرحمن وجنود الشيطان يتقابلان

واصطف الجيشان وجاء إبليس إلى قريش في صورة سراقة بن مالك فقال لهم: أنا جار لكم ادفعوا إليَّ رايتكم، فدفعوها إليه وجاء بشياطينه يهول بهم على أصحاب رسول الله (ص) وتزاحف الناس على أثره ودنا بعضهم من بعض.

فأمر رسول الله (ص) أصحابه أن لايحملوا حتى يأمرهم، وأن يكتفوا برمي القوم بالنبال حتى لايقتربوا منهم، ثم رفع يده إلى السماء يناشد ربّه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول:

(اللهمّ إن تهلك هذه العصابة اليوم فلن تعبد في الأرض أبداً، وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد).

فأنزل الله تعالى: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ) ([110]) فأمدّه الله بالملائكة، حتى سمع الناس قعقعة السلاح من الجوّ، وقائل يقول: اقدم حيزوم، اقدم حيزوم، وكان ذلك جبرئيل في ألف من الملائكة مردفين، فلما نظر إبليس

[110] – الأنفال: ٩.

إلى جبرئيل تراجع ونكص على عقبيه ورمى باللواء، فأخذ منبه بن الحجاج بمجامع ثوبه ثم قال: ويلك يا سراقة تفتّ في أعضاد الناس، فركله إبليس ركلة في صدره وقال: اني أرى ما لاترون، حيث انه كان يرى جبرئيل يلاحقه بحربة معه يريد أن يطعنه بها.

المشركون ينهزمون

ثم حرض رسول الله (ص) الناس على القتال وقال: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنّة.

فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة، وفي يده تمرات يأكلهنّ: بخ بخ، فما بيني وبين أنْ أدخل الجنّة إلاّ أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل (رحمه الله).

ثم إنّ رسول الله (ص) أخذ حفنة من الحصى فاستقبل بها قريشاً ثم قال: شاهت الوجوه، ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه فقال: شدوا، فكانت الهزيمة.

فقال رسول الله (ص) وقد رفع يديه إلى السماء: (اللهمّ لا يفلتنّ فرعون هذه الأُمّة أبو جهل بن هشام) فقتل فيها مع من قتل من صناديد قريش، وأُسر فيها من أُسر من رؤوسهم، فكان الذين قتلوا سبعين، والذين أُسروا سبعين أيضاً.

مصير أبي جهل

روي عن بعض من شهد بدر انه قال: إني لواقف يوم بدر في الصف، إذ التفتّ، فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السنّ، فكأنّي لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرّاً من صاحبه: يا عم أريني أباجهل.

فقلت: يا ابن أخي فما تصنع به؟

قال: أُخبرت أنه يسبّ رسول الله (ص) ثم أردف يقول: والذي نفسي بيده لئن رأيته لايفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منّا، فتعجّبت لذلك.

قال: وغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذي تسألاني عنه.

قال: فابتدراه بسيفهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله (ص).

فقال (ص): أيّكما قتله؟

فقال كل واحد منهما: أنا قتلته.

قال: هل مسحتما سيفيكما؟

فقالا: لا.

فنظر رسول الله (ص) إلى السيفين فقال: كلاّ كلاكما قتله.

وقضى رسول الله (ص) بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء.

وفي رواية: ان معاذ بن عفراء ضرب أباجهل هو وأخوه عوف بن الحارث حتى أثبتاه، فعطف عليهما فقتلهما، ثم وقع صريعاً، فدفّف عليه ابن مسعود وذلك كما قال: انتهيت إلى أبي جهل وهو يتشحّط في دمه فقلت: الحمد لله الذي أخزاك.

فرفع رأسه فقال: انما أخزى عبد ام عبد، أخبرني لمن الدائرة اليوم؟

قلت: لله ولرسوله (ص)، واني قاتلك، ووضعت رجلي على عاتقه.

فقال: لقد ارتقيت مرتقاً صعباً، أما انه ليس واللاّت والعزّى شيء أشدّ من قتلك إيّاي يا رويعيّ الغنم، ألا تولّى قتلي رجل من المطّلبين أو رجل من الأحلاف، فاقتلعت بيضة كانت على رأسه فقتلته وأخذت رأسه وجئت به إلى رسول الله (ص) فقلت: يا رسول الله البشرى هذا رأس أبي جهل، فسجد لله شكراً.

لما ألقت الحرب أوزارها

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله (ص) حتى وقف على قتلى المشركين فقال: جزاكم الله من عصابة شراً، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيّكم، كذّبتموني وصدّقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس.

ثم التفت (ص) إلى أبي جهل فقال: ان هذا أعتى على الله من فرعون، انّ فرعون لما أيقن بالهلاك وحّد الله، وانّ هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللاّت والعزّى.

ثم أمر بهم فأُلقوا في القليب، فلما أُلقوا فيه وقف عليهم وقال: (يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أُمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام، وذكر أهل القليب واحداً واحداً، ثم قال: هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً؟ فإنّي قد وجدتُ ما وعدني ربّي

حقاً).

فقال رجل من الصحابة: أتكلّم قوماً موتى؟

فقال (ص): (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يُجيبوني).

ثم دفنوا شهداء المسلمين وكانوا تسعة رجال فيهم سعد بن خيثمة، وكان من النقباء بعد أن صلّوا عليهم، ثم صلّى رسول الله (ص) بالناس صلاة العصر ورحلوا من بدر.

في طريق العودة

ولما غادر رسول الله (ص) بأصحابه منطقة بدر متّجهاً نحو المدينة حمل معه الأُسارى من المشركين وفيهم عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث، وحمل أيضاً معه الغنائم التي اغتنموها، والنفل الذي أُصيب من المشركين، وجعل على النفل عبدالله بن كعب بن عمرو بن عوف المازني من بني النجار، حتى إذا كان بالصفراء قسم الغنائم بين أصحابه بالسويّة وادّخر سهم الشهداء ليُسلّمها إلى ذويهم.

ثم دخل رسول الله (ص) المدينة مع أصحابه مؤيداً مظفراً منصوراً قد هاب جانب المسلمين كل عدوّ لهم بالمدينة وحولها، كما وأسلم بشر كثير من أهل المدينة ممّن لم يكن أسلم بعد، وحينئذ دخل عبدالله بن أُبيّ رأس المنافقين وأصحابه في الإسلام.

مع أسرى بدر

ثم انّ رسول الله (ص) حين أقبل بالأُسارى فرّقهم بين أصحابه وقال: استوصوا بالأُسارى خيراً..

فكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأُمّه في الأُسارى، وكان يحمل أحد ألوية قريش، وكان يقول بعد أن أُطلق سراحه بالفداء: كنتُ أسيراً في أيدي رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدّموا غداءهم أو عشاءهم خصّوني بالخبز، وأكلوا التمر، والخبز عندهم قليل، والتمر زادهم، وذلك لوصية رسول الله (ص) بنا.

وما تقع في يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحني بها. فأستحي فأردها عليهم، فيردها عليَّ ما يمسّها، كما انهم كانوا لقلّة مراكبهم يحملوننا على ما عندهم من مركب ويمشون هم بأنفسهم.

مع العباس بن عبد المطلب

ولما جنّهم الليل وولي بعض الصحابة وثاق الأسرى فشدّ وثاق العباس، فسمعه النبي (ص) وهو يئن فلم يأخذه (ص) النوم، فبلغ الأنصار فأطلقوا العباس، فكان الأنصار فهموا رضاء رسول الله (ص) بفك وثاقه، وسألوه أن يتركوا له الفداء، فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أُختنا عباس فداءه.

وفي حديث ابن عباس: انه (ص) قال: يا عباس افد نفسك وابني أخويك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمر.

فقال: إنّي كنتُ مسلماً، ولكن القوم استكرهوني.

قال: الله أعلم بما تقول، إن يكن ما تقول حقاً فالله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا.

قال: ما ذاك عندي يا رسول الله.

قال: فأين المال الذي دفنته عند أُم الفضل فقلت: إن أصبت فالمال الذي دفنته للفضل وعبدالله وقثم.

قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله، انّ هذا شيء ما علمه أحد غيري وغير أُم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي.

قال رسول الله (ص): ذاك شيء أعطانا الله منك، ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، وأنزل الله فيه: (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ) ([111]).

بين المنّ والفداء

وكان الفداء من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألفي درهم إلى ألف درهم، إلى قوم لامال لهم منّ عليهم رسول الله (ص).

وأسر رسول الله (ص) يوم بدر سبعين أسيراً، وكان يفاديهم على قدر أموالهم، وكان أهل

[111] – الأنفال: ٧٠.

مكة يكتبون وأهل المدينة لايكتبون، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلّمهم، فإذا حذقوا فهو فداؤه.

وممّن منّ عليه رسول الله (ص): المطلب بن حنطب، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبو عزة الجمحي، وأخذ عليه أن لايظاهر عليه أحداً، وكان محتاجاً ذابنات، فقال: يا رسول الله لقد عرفت مالي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال، فامنن عليَّ، فمنّ عليه رسول الله (ص) وأخذ عليه أن لايظاهر عليه أحداً.

النبي (ص) يستوهب فداء صهره

وممّن منّ عليه رسول الله (ص) أبوالعاص بن الربيع زوج زينب ابنته بعد أن بعثت زينب بنت رسول الله (ص) بفدائه، وكان فيما بعثت به: قلادة كانت خديجة أُمّها أهدتها لها ليلة زفافها، فلمّا رأى رسول الله (ص) القلادة تذكّر زوجته الوفيّة خديجة(ع) فرقّ لها وبكى.

ثم التفت (ص) إلى المسلمين وقال: إن رأيتم أن تطلقوا سراح أسيرها وتردّوا عليها ما بعثت به من الفداء فافعلوا.

أي: انه (ص) لم يفرض رأيه عليهم مع ان القرآن يقول: (النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) ([112]) وبذلك أعرب عن حرية الإسلام ورسم سياسته الحكيمة.

فقال المسلمون: نعم يا رسول الله نفديك بأنفسنا وأموالنا، فردّوا عليها ما بعثت به، وأطلقوا سراح أبي العاص بغير فداء، فشكرهم رسول الله (ص) على ذلك.

هذا، وكان رسول الله (ص) قد أخذ عليه، أو انه وعد رسول الله (ص) أن يخلي سبيل زينب، فلما خرج أبوالعاص إلى مكة بعث رسول الله (ص) زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: كونا ببطن يأجج حتى تمرّ بكما زينب فتصحباها حتى تأتياني بها. فخرجا نحو مكة، وذلك بعد بدر بشهر.

فلما قدم أبوالعاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فتجهّزت وخرجت، فتعرّض لها هبار بن الأسود وروّعها بالرمح وهي في الهودج، وكانت حاملاً، فألقت ما في بطنها، فأمر رسول الله (ص) بقتله، فلم يظفروا به حتى إذا كان يوم الفتح هرب ثم قدم مختفياً، فلما مثل بين يدي

[112] – الأحزاب: ٦.

رسول الله (ص) أسلم، فقبل (ص) اسلامه وعفا عنه.

النهي عن التعذيب والمثلة

وقدم مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو، وكان الذي أسره مالك بن الدخشم، وفداه بأربعة آلاف درهم.

وذكر ابن اسحاق أنّ رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله دعني انزع ثنيتي سهيل بن عمرو يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً.

فقال رسول الله (ص): لا أُمثل به، فيمثل الله بي وإن كنت نبياً.

وفي حديث: انّ رسول الله (ص) قال في جوابه: انه عسى أن يقوم مقاماً لا نذمه.

بؤرة التآمر والبخل

اشترك في بدر لأبي سفيان ولدان: حنظلة وعمرو ابنا أبي سفيان، أما حنظلة فقد قتل، وأما عمرو فقد وقع أسيراً في يدي رسول الله (ص).

فقيل لأبي سفيان: افد عمراً ابنك.

فقال: يجمع عليّ دمي ومالي، قتلوا حنظلة، وأُفدى عمراً، دعوه في أيديهم يمسكونه ما بدا لهم.

فبينما هو كذلك إذ خرج سعد بن النعمان أخو بني عمرو بن عوف معتمراً، فعدا عليه أبوسفيان فحبسه بابنه عمرو، وقد كان عهد قريش لا يتعرضون لأحد جاء حاجاً أو معتمراً إلا بخير.

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله (ص) فأخبروه خبره وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان، فيفكوا به صاحبهم، ففعل رسول الله (ص)، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد.

المشركون وأنباء الحرب

وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش: الحيسمان بن عبدالله الخزاعي، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبوالحكم بن هشام، وأُمية بن خلف، وزمعة

بن الأسود، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأبوالبختري بن هشام.

فلما جعل يعدّ أشراف قريش قال صفوان بن أُمية وهو قاعد في الحجر مستنكراً عليه ذلك: والله إن يعقل هذا فاسألوه عنّي.

قالوا: ما فعل صفوان بن أُمية؟

قال: ها هو ذا جالس في الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

مصير أبي لهب

وفي حديث أبي رافع . وكان غلاماً للعبّاس . انه قال: لما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر سررنا بذلك، لأنا كنا قد أسلمنا من قبل، وكنت جالساً في حجرة زمزم أنحت السهام وأصنعها، وعندي أُم الفضل جالسة، إذ أقبل أبولهب وهو يجرّ رجليه بشرّ حتى جلس.

فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا ابن أخيك أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب قدم من بدر.

قال: فقال أبولهب: هلم إليَّ، فعندك لعمري الخبر.

قال: فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي، أخبرني كيف كان أمر الناس؟

قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، والله ما تبقى شيئاً ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة ثم قلت . وكان الإسلام قد دخلنا وسرّنا ذلك .: تلك والله الملائكة.

فرفع أبو لهب يده فضربني في وجهي ضربة شديدة.

فقامت أُم الفضل إلى عمود فضربت به في رأس أبي لهب وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيّده؟

قال: فوالله ما عاش أبو لهب بعدها إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة . وهي قرحة تتشاءم بها العرب . فتباعد عنه بنوه حتى هلك، وبقي ثلاثة أيام لا يقرب أحد جنازته، ولا يحاول دفنه، فلما خافوا السبة في تركه حفروا له ثم دفعوه بعود في حفرته وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه.

وكان فراغ رسول الله (ص) من بدر في عقب رمضان وأوائل شوّال، وفي أول شوّال صلّى (ص) صلاة الفطر.

غزوة بني سُليم

وبعد بدر بسبعة أيام، خرج رسول الله (ص) في ثلاثمائة من الصحابة يريد بني سُليم، حيث كانوا يعيثون في الأرض فساداً ويستعدّون لشنّ هجوم على المدينة.

فبلغ (ص) ماء يقال له: قرقرة الكدر، وهي أرض ملساء، والكُدر: طير في لونها كدرة، فأقام بها ثلاث ليال وقيل: عشراً، فلم يلق حرباً، وذلك بعد أن استخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، وقيل: ابن أُم مكتوم، وحمل اللواء علي بن أبي طالب (ع)، وقيل: إنه أصاب لهم نعماً يزيد على خمسمائة وغلاماً يقال له يسار فأعتقه، ورجع ولم يلق كيداً.

وكانت هذه الغزوة من غزواته التأديبية.

غزوة بني القينقاع

ثم كانت غزوة بني قينقاع . بطن من يهود المدينة . في يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة النبوية المباركة، وكانوا أول من نقض العهد، فجمعهم رسول الله (ص) في سوق بني قينقاع وقال لهم:

(يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم اني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم).

فقالوا: يا محمد لا يغرنّك انك لقيت قومك فأصبت منهم، ولا علم لهم بالحرب، فإنا والله لو حاربناك لعلمت انا خلافهم.

فكادت تقع بينهم المناجزة فنزل فيهم: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ، قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا ...)([113]) إلى آخر الآية.

فبينما هم على ما أظهروه من العداوة ونبذ العهد إذ جاءت امرأة رجل من الأنصار فجلست إلى صائغ في حلي لها، فجاء أحد بني قينقاع فعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى

[113] – آل عمران: ١٢ و ١٣.

ظهرها وهي لا تعلم، فلما قامت انكشفت فصاحت، فضحكوا منها، فاتبعه رجل من المسلمين فقتله، فاجتمع عليه بنو قينقاع فقتلوه ونبذوا عهدهم ووقع الشر بين المسلمين وبين بني قينقاع، فنزل فيهم: (وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ) ([114]).

فسار إليهم النبي (ص) وحاصرهم خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة وكان اللواء بيد حمزة بن عبدالمطلب، وكان أبيض، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله (ص) على ان له أموالهم، وان لهم النساء والذرّية.

فأمر (ص) المنذر بن قدامة بتكتيفهم، فتوسّط لهم عبدالله بن أُبيّ وألحّ عليه من أجلهم.

فقال (ص): خلوهم، وأمر أن يجلوا من المدينة وتركهم من القتل، فأجلاهم محمد بن سلمة الأنصاري، وقيل: عبادة بن الصامت، فلحقوا بأذرعات الشام بنسائهم وذراريهم فلم يلبثوا إلاّ قليلاً حتى هلكوا، وأما أموالهم فخمّسها رسول الله (ص) وقسّم الباقي بين أصحابه.

غزوة السويق

ولما رجع رسول الله (ص) من غزوة بني القينقاع، أقام بالمدينة بقية شوال، وذي القعدة، وفادى في إقامته جلّ أُسارى بدر من قريش، ثم كانت غزوة السويق.

وذلك ان أباسفيان بن حرب كان نذر أن لا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً (ص) فخرج في مائتي راكب من قريش ليبرّ نذره حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له: (نبت) وكان من المدينة على بريد أو نحوه.

ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل، فأتى حُيي بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له وخاف.

فانصرف منه إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك، وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه وبطن له من خبر الناس.

ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى ناحية يقال لها: (العريض) فوجد فيها رجلاً من الأنصار

---

[114] – الأنفال: ٥٨.

وحليفاً له في حرث لهما فقتلهما، ثم حرق بيتاً وحرثاً لهم، ثم ولّى هارباً خوفاً من ملاحقة المسلمين، وقد رأى فيما فعله براً لنذره.

فلما سمع رسول الله (ص) بذلك انتدب أصحابه وخرج في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكُدر، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، وطرحوا كثيراً من أزوادهم، كالسويق وغيره، يتخففون منها للنجاء، فأخذها المسلمون، فسميت غزوة السويق.

فقال المسلمون: يا رسول الله أتطمع بأن تكون لنا غزوة؟ قال: نعم.

غزوة ذي أمَر

ولما رجع رسول الله (ص) من غزوة السويق، أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريباً منها، ثم غزا نجداً يريد غطفان.

وذلك لأن جمعاً من غطفان تجمّعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف المدينة ويغيروا عليها، وقد جمعهم رجل يقال له: دعثور بن الحارث المحاربي.

فندب رسول الله (ص) المسلمين وخرج بهم في أربعمائة وخمسين رجلاً، ومعهم أفراس.

فلما سمعوا بمهبطه هربوا في رؤوس الجبال، فأصاب المسلمون رجلاً منهم يقال له: جبار من بني ثعلبة، فأدخل على رسول الله (ص)، فدعاه إلى الإسلام فأسلم وضمه إلى بلال.

وأصاب النبيّ (ص) مطر فبلّ ثوبه، فجعل وادي أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه ونشرها على شجرة لتجفّ، واضطجع تحتها وغطفان ينظرون إليه، فقالوا لدعثور وكان أشدّهم فتكاً: قد انفرد محمد فعليك به، فأقبل ومعه سيف صارم حتى قام على رأسه (ص) فقال: من يدفعك منّي اليوم؟

فقال (ص): الله، ودفع جبرئيل في صدره فوقع السيف من يده، فأخذه النبي (ص) وقام على رأسه وقال: من يمنعك منّي؟

قال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك محمد رسول الله، ثم قال: والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً، فأعطاه رسول الله (ص) سيفه.

وعلى رواية: قال (ص) له: من يمنعك منّي؟ فقال: عفوك يا محمّد، فأعطاه (ص) سيفه، فأسلم الرجل.

ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام، فأسلم منهم ناس كثير، وأنزل الله تعالى: (يا أيّها

الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم) الآية.

سريّة محمد بن مسلمة

ثم انه لما انتصر المسلمون في غزوة بدر على أعدائهم المشركين وأسروا منهم سبعين، وقتلوا من صناديدهم ورؤوسهم سبعين، وألقوهم في القليب، قدم زيد بن حارثة بشيراً إلى أهل السافلة وعبدالله بن رواحة إلى أهل العالية يبشران بالفتح.

فقال كعب بن الأشرف وهو من نبهان من طي وكانت أُمه من بني النضير: أترون محمداً قتل هؤلاء؟ ان هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها، فلما أيقن كعب الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي، وجعل يحرّض على رسول الله (ص) وينشد الأشعار ويبكي على أصحاب القليب، ويشبّب بنساء المسلمين حتى آذاهم، ثم انبعث يهجو رسول الله (ص) والمسلمين، ويمدح عدوّهم ويحرضهم عليهم.

فقال له أبوسفيان والمشركون: أديننا أحبّ إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأيّ ديننا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق؟

فقال: أنتم أهدى منهم سبيلاً وأفضل.

ثم تحالف معهم وتعاقد على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد (ص) وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة.

ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة فنزل جبرئيل (ع) وأخبر النبي (ص) بما تعاقد عليه كعب وأبوسفيان وأمره بقتل كعب.

فقال رسول الله (ص) وقد عاد كعب إلى المدينة: من لنا بابن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله، وقد استعلن بعداوتنا وهجائنا، وقد خرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا، وقد أخبرني الله بذلك، ثم قدم بأخبث ما كان ينتظر قريشاً تقدم عليه فيقتلنا، ثم قرأ على المسلمين ما أنزل الله فيه: (أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفى بِهِ إِثْماً مُبِيناً، أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا

سَبِيلاً) ([115]).

فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتأذن لي أن أقتله؟

قال: نعم، إنّ الله قد أذن في قتله.

فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة وهو أخو كعب من الرضاعة، فدعاه إلى الحصن، فنزل إليهم، فقتلوه، ثم أتوا النبيّ (ص) فأخبروه بقتله، وكفى الله المسلمين شرّ حرب كان يريد كعب ايقادها، وكان ذلك لأربع عشرة ليلة مضت من ربيع الأول.

سرية زيد بن حارثة

ثم بعث رسول الله (ص) زيد بن حارثة في مائة راكب إلى (القَرْدَةُ) (بالقاف المفتوحة والراء الساكنة) اسم ماء من مياه نجد، وذلك بعد رجوعه من بدر إلى المدينة بستة أشهر، أي أوائل ربيع الثاني، وقيل: أوائل جمادي الآخرة على رأس سبعة وعشرين شهراً من الهجرة النبوية المباركة.

وسببه ان قريشاً خافوا من طرقهم التي كانوا يسلكون إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان، فسلكوا طريق العراق، وكان فيهم أبوسفيان بن حرب ومعهم فضة كثيرة، وكانوا قد استأجروا رجلاً من بكر بن وائل يقال له: فرات بن حيّان يدلّهم على الطريق، فلقيهم زيد ومن معه على ماء يقال له: (القَرْدَة)، فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزته الرجال هرباً، فقدم بها على رسول الله (ص) مع أسير أو أسيرين كان أحدهم فرات بن حيان، فأسلم فترك، وأما الأموال فخمست وقسمت بقيّتها بين أهل السريّة.

وكانت هذه حملات تأديبية، ولكي يقابل قريش بالمثل حيث ضربوا على المدينة حصاراً اقتصادياً كما أشرنا إليه سابقاً.

سرية عبدالله بن عتيك

لما قتل المسلمون في سرية محمد بن مسلمة كعب بن الأشرف وكانوا من الأوس، قالت الخزرج: والله لاتذهب الأوس بهذه الفضيلة علينا، وأخذوا يتذاكرون من يعادي رسول الله

[115] – النساء: ٥١ و ٥٢.

(ص) كابن الأشرف، فذكروا أبا رافع سلام بن أبي الحقيق، وكان من يهود خيبر، وكان يظاهر كعب بن الأشرف على رسول الله (ص) ويحرض المشركين عليه، ففكروا في قتله ليضاهوا في الفضل نظرائهم من الأوس، فاستأذنوا رسول الله (ص) في قتله، فأذن لهم.

فخرج إليهم من الخزرج: عبدالله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبدالله بن أنيس، وأبو قتادة، وخزاعي ابن الأسود حليف لهم، وأمّر عليهم عبدالله بن عتيك، فخرجوا حتى قدموا خيبر، فأتوا دار أبي رافع، فدخلوا عليه فقتلوه وخرجوا وكان ذلك في جمادي الآخرة.

غزوة أُحُد

و(أُحُد) جبل مشهور بالمدينة على أقل من فرسخ منها، ويسمّى بذلك لانفراده وانقطاعه عن جبال أُخر هناك، ويقال له: (ذو عينين) أيضاً، وهو الذي قال فيه رسول الله (ص) حين وقع نظره إليه: أُحُد جبل يحبّنا ونحبّه، وكانت عنده الوقعة المشهورة في شوال في السنة الثالثة من الهجرة النبوية المباركة.

وذلك لأنّ قريشاً لما رجعوا من بدر إلى مكة وقد أُصيبوا بأصحاب القليب، منعهم أبوسفيان من البكاء والنوح على قتلاهم ليبقوا على حنقهم وغيظهم ويفكّروا في الثأر لقتلاهم، وقال تأكيداً لذلك: الدهن والنساء عليَّ حرام حتّى أغزو محمداً.

وبقوا يستعدون لذلك، حتى قال صفوان بن أُمية، وعكرمة بن أبي جهل في جماعة ممن أُصيب آباؤهم وإخوانهم وأبناؤهم يوم بدر: يا معشر قريش، إنّ محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه . يعنون عير أبي سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة . لعلنا أن ندرك منه ثأراً.

فأجابوا لذلك فباعوها وكانت ألف بعير والمال خمسين ألف دينار، وفيهم أنزل الله تعالى: (انّ الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثمّ تكون عليهم حسرة ثمّ يغلبون والذين كفروا إلى جهنّم يحشرون) ([116]).

رسالة من مكة

ولما اجتمعت قريش لحرب رسول الله (ص) كتب العباس بن عبدالمطلب وهو في مكّة

---

[116] – الأنفال: ٣٦.

كتاباً يخبر رسول الله (ص) بخبرهم، واستأجر رجلاً من بني غفار واشترط عليه أن يقطع الطريق إلى المدينة في ثلاثة أيام، ويوصل الرسالة إلى رسول الله (ص).

فلما قدم الغفاري المدينة كان رسول الله (ص) في بعض حيطانها فقرأه ولم يخبر أصحابه وأمرهم أن يدخلوا المدينة، فلما دخلوا المدينة أخبرهم بالخبر.

النبي (ص) يستشير أصحابه

فلما فشى الخبر في الناس جمع رسول الله (ص) أصحابه يستشيرهم في مواجهة المشركين، فقال (ص): أشيروا عليّ، ورأى ـ على رواية ـ أن لايخرج من المدينة.

فقال بعضهم: يا رسول الله ان مدينتنا عذراء ما فضّت علينا قط، وما خرجنا إلى عدوّ منها قط إلا أصاب منا، وما دخل علينا قط إلا أصبناهم، يعني بذلك: عدم الخروج من المدينة.

وقال بعضهم: يا رسول الله إنّا نخشى أن يظن عدوّنا انا نكره الخروج إليهم جبناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا.

وقال حمزة: والذي أُنزل عليه الكتاب لا اطعم اليوم طعاماً حتى أُجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة.

وكان هذا رأي الأكثرية، فعزم رسول الله (ص) على الخروج، فصلّى بالناس الجمعة ثم وعظهم وأمرهم بالجدّ والإجتهاد، وأخبر أنّ لهم النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيّؤ لعدوّهم، ففرح الناس بذلك.

ثم صلّى (ص) بالناس العصر وقد تحشدوا، وحضر أهل العوالي، واصطف الناس ينتظرون خروجه، فلبس (ص) السلاح وخرج.

الخروج إلى أُحُد

ولما خرج (ص) إلى أُحُد عقد ثلاثة ألوية: لواء الأوس بيد اسيد بن حضير، ولواء المهاجرين بيد علي بن أبي طالب (ع)، ولواء الخزرج بيد الحباب بن المنذر، وفي المسلمين مائة دارع، وخرج السعدان أمامه يعدوان دارعين، واستعمل على المدينة ابن أُمّ مكتوم، وعلى الحرس تلك الليلة محمد بن مسلمة، وأدلج (ص) في السحر، وكان قد ردّ جماعة من المسلمين

لصغرهم، منهم أُسامة بن زيد، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وعرابة بن أوس، وعمرو بن حزم.

وكان المسلمون ألف رجل ويقال: تسع مائة، والمشركون ثلاثة آلاف رجل، ويقال: أربعة آلاف أو خمسة آلاف، فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس، وخمس عشرة امرأة من بينهم هند، وهي ترتجز وتقول أشعاراً.

وكان أبو سفيان قد استأجر يوم أُحُد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم المسلمين.

ونزل (ص) بأُحُد، ورجع عنه عبدالله بن أُبيّ بنحو ثلث العسكر فيمن تبعه من قومه وحلفائه، فتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام . والد جابر . يوبّخهم ويحرضهم على الرجوع ويقول: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا.

قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، فرجع عنهم وتركهم.

التقاء الجمعين

ونفذ رسول الله (ص) حتى نزل الشعب من أُحُد في عدوة الوادي، وجعل ظهره إلى أُحد مستقبلاً المدينة، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم.

وكان أبو سفيان قد نزل بطن الوادي من قبل أُحد مقابل المدينة، نزل بها يوم الخميس، بينما نزل رسول الله (ص) بأُحُد يوم الجمعة.

فلما أصبح يوم السبت تعبأ (ص) للقتال، وكان فيهم خمسون فارساً، فسوّى الصفوف، وبوّأ كلاً منهم مكانه، وخطب فيهم خطبة بليغة حثهم فيها على الثبات وحرضهم على الجهاد والمقاومة، وكان ممّا جاء فيها: وما من ملك إلا وله حمى، ألا وان حمى الله محارمه، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى عليه سائر جسده.

ثم انه (ص) جعل على ثغرة كانت في جبل أُحُد جماعة من الرماة وكانوا خمسين رجلاً، فأمّر عليهم عبدالله بن جبير وقال له: انضح الخيل عنا بالنبل، واحموا لنا ظهورنا لايأتونا من خلفنا، فإن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكة فلا تبرحوا من هذا المكان، وإن رأيتموهم قد هزمونا حتى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا والزموا مراكزكم.

وقيل: انه (ص) قال لهم: فإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أُرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أُرسل إليكم.

ثم جعل (ص) على راية المهاجرين علياً (ع) وعلى راية الأنصار سعد بن عبادة.

وتعبأت قريش فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل.

وقيل: انّ أباسفيان وضع خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً وقال له: إذا رأيتمونا قد اشتدّ القتال وحمى، واختلط بعضنا ببعض، فأخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا من ورائهم.

بدء القتال

ولما اصطف الجيشان كانت راية المشركين مع طلحة بن أبي طلحة من بني عبدالدار، فالتفت إليه أبوسفيان وقال له بعد أن عبأهم للقتال: إن كنتم ترون أنكم قد ضعفتم عنها، فادفعوها إلينا نكفكموها.

فغضب طلحة بن أبي طلحة وقال: ألنا تقول هذا؟ والله لأُوردنّكم بها اليوم حياض الموت، وكان طلحة هذا يسمّى (كبش الكتيبة) فبرز ونادى: يا محمّد تزعمون انكم تجهّزونا بأسيافكم إلى النار، ونجهّزكم بأسيافنا إلى الجنّة، فمن شاء أن يلحق بجنّته فليبرز إليّ، فأنا كبش الكتيبة طلحة بن أبي طلحة.

فبرز إليه علي (ع) وهو يقول:

يا طلح إن كنت كما تقول***لكم خيولٌ ولنا نصولُ

فاثبت لننظر أيّنا المقتولُ***وأيّنا أولى بما تقولُ

فقد أتاك الأسدُ الصؤولُ***بصارم ليس به فلولُ

ينصره القاهر والرسول

فقال طلحة: من أنت؟

قال: أنا علي بن أبي طالب.

فقال طلحة: قد علمت يا قضم([117]) انه لا يجسر عليّ أحد غيرك، فشدّ عليه طلحة

---

[117] – تفسير علي بن إبراهيم قال: وحدّثني أبي، عن ابن أبي عمير، عن هشام، عن أبي عبد الله (ع) انه سئل عن معنى قول طحة بن أبي طلحة لما بارزه علي (ع): يا قضم؟ قال (ع): إن رسول الله (ص) كان بمكة لم يجسر عليه أحد لموضع أبي طالب، فأغروا به الصبيان، وكانوا إذا خرج رسول الله (ص)

فضربه، فأتقاه علي (ع) بالحجفة، ثم ضربه (ع) على فخذيه فقطعهما جميعاً فسقط على ظهره، وسقطت الراية، فذهب علي (ع) ليجهز عليه، فحلّفه بالرحم فانصرف (ع) عنه.

فقال المسلمون: الا أجهزت عليه؟

قال (ع): قد ضربته ضربة لا يعيش منها أبداً.

فسرّ رسول الله (ص) وكبّر تكبيراً عالياً، وكبّر المسلمون.

ثم أخذ الراية أبو سعد بن أبي طلحة فقتله علي (ع) وسقطت رايته على الأرض.

فأخذها عثمان بن أبي طلحة فقتله علي (ع) وسقطت الراية على الأرض.

فأخذها مسافع بن أبي طلحة، فقتله علي (ع) وسقطت الراية على الأرض.

فأخذها الحارث بن أبي طلحة، فقتله علي (ع) وسقطت الراية على الأرض.

فأخذها أبو عزيز بن عثمان، فقتله علي (ع) وسقطت الراية على الأرض.

فأخذها عبدالله بن أبي جميلة، فقتله علي (ع) وسقطت الراية على الأرض.

فأخذها أرطاة بن شرحبيل فقتله علي (ع) وسقطت الراية على الأرض.

فأخذها مولاهم صوأب، فضربه علي (ع) على يمينه فقطعها، فأخذها بشماله، فضربه (ع) على شماله فقطعها، فأخذها على صدره وجمع يديه وهما مقطوعتان عليها، فضربه علي (ع) على أُم رأسه فسقط صريعاً.

...فاشتدّ القتال إلى أن انهزم القوم، وولّوا مدبرين حتّى انتهوا إلى نسائهم، وأكبّ المسلمون على الغنائم.

المشركون ينهزمون

فلما انهزم المشركون، وأكبّ المسلمون على جمع الغنائم، ورأى أصحاب الشعب الذين أوكلهم رسول الله (ص) بحفظ الثغرة من خلفهم ان الناس يغنمون، قالوا: نريد أن نغنم كما

يرمونه بالحجارة والتراب، فشكى ذلك إلى علي (ع) فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله إذا خرجت فأخرجني معك، فخرج رسول الله (ص) ومعه علي (ع) فتعرض الصبيان لرسول الله (ص) كعادتهم، فحمل عليهم علي (ع) وكان يقضمهم في وجوههم وآنافهم وآذانهم فكان الصبيان يرجعون باكين إلى آبائهم ويقولون: قضمنا علي، قضمنا علي، فسمي لذلك: القُضَم. (راجع بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ٥٢ ب ١٢ ح ٣).

يغنم الناس!

قال لهم عبدالله بن جبير: انّ رسول الله (ص) أمرني أن لا أبرح من مكاني هذا.

فقالوا له: أمرك بهذا ما لم يبلغ الأمر إلى ما نرى، ومالوا إلى الغنائم وتركوه، ولم يبرح هو ونفر قليل معه من موضعه، واشتغل الباقي بجمع الغنائم.

قالوا: ما ظفر الله نبيّه في موطن قط بما ظفره وأصحابه يوم أُحُد، حتّى عصوا الرسول (ص) وتنازعوا في الأمر.

المسلمون لما عصوا الرسول (ص)

ولما عصى المسلمون أمر رسول الله (ص) وتركوا الثغرة التي وكلهم بها، ولم يبق فيها سوى نفر قليل، حمل عليهم خالد بن الوليد فقتلهم، بعد أن تراموا بالنبال، وتطاعنوا بالرماح، وتقاتلوا بالسيوف، ثم جاء من ظهر رسول الله (ص) يريده، فنظر إلى النبي (ص) وهو في قلّة من أصحابه فقال لمن معه: دونكم هذا الذي تطلبون فشأنكم به.

وبصرت قريش في هزيمتها إلى الراية قد رفعت فلاذوا بها، فحملوا عليه (ص) حملة رجل واحد ضرباً بالسيوف، وطعناً بالرماح، ورمياً بالنبل، ورضخاً بالحجارة.

وجعل أصحاب رسول الله (ص) يقاتلون عنه حتى قتل منهم سبعون رجلاً، أربعة من المهاجرين: حمزة، ومصعب بن عمير، وعثمان بن شماس، وعبدالله بن جحش، وسائرهم من الأنصار، فانهزم على أثره الباقون، ولم يثبت للقوم إلاّ علي (ع)، وأبو دجانة، وسهل بن حنيف، يدفعون عن النبي (ص) وقد كثر عليهم المشركون.

فالتفت النبي (ص) إلى علي (ع) وقال: ما صنع الناس يا علي؟

قال (ع): كفروا يا رسول الله وولّوا الدبر من العدو وأُسلموك.

قال: ما لك لاتذهب مع القوم؟

فقال: أذهب وأدعك يا رسول الله؟ أكُفر بعد ايمان؟! انّ لي بك أُسوة والله لابرحت حتى أُقتل، أو ينجز الله لك ما وعدك من النصر، فثبت معه يدفع عنه الكتائب.

فنظر رسول الله (ص) إلى كتيبة قد أقبلت إليه، فقال لعلي (ع): ردّ عني يا علي هذه الكتيبة، فحمل عليها وفرّقها، وكلّما حملت طائفة على رسول الله (ص) استقبلهم علي (ع) فيدفعهم عنه، ويقتلهم حتى تقطّع سيفه ثلاث قطع.

لا فتى إلاّ علي لا سيف إلاّ ذوالفقار

فلمّا انقطع سيف علي (ع) جاء إلى رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله انقطع سيفي ولاسيف لي.

فخلع رسول الله (ص) سيفه ذاالفقار الذي نزل من الجنّة([118]) وقلّده علياً (ع)، فمشى علي (ع) إلى المشركين وقتل كل من برز إليه، وصدّ كل كتيبة أغارت عليهم، فلم يزل على ذلك حتى وهت درعه، وأصابته تسعون جراحة، وفي بعض جراحاته كان يسقط منها على الأرض فيرفعه جبرئيل (ع).

فعرف رسول الله (ص) ذلك فرفع يديه نحو السماء وقال: (ننشدك يا ربّ ما وعدتني، فإنّك إن شئت لم تعبد).

وفي رواية قال (ص) وهو يدعو: (اللهمّ إنّ محمداً عبدك ورسولك، جعلت لكلّ نبي وزيراً من أهله لتشدّ به عضده، وتشركه في أمره، وجعلت لي وزيراً من أهلي: علي بن أبي طالب أخي، فنعم الأخ ونعم الوزير، اللهمّ وعدتني أن تمدّني بأربعة آلاف من الملائكة مردفين، اللهمّ وعدك وعدك انّك لا تخلف الميعاد، وعدتني أن تظهر دينك على الدين كلّه ولو كره المشركون) ([119]).

فبينما رسول الله (ص) يدعو ربّه ويتضرّع إليه إذ سمع دويّاً من السماء، فرفع رأسه فإذا جبرئيل (ع) على كرسي، ومعه أربعة آلاف من الملائكة مردفين، وهو يقول: (لا فتى إلاّ علي، ولا سيف إلاّ ذو الفقار)، فهبط جبرئيل وحفّت الملائكة برسول الله (ص) وسلّموا عليه.

فقال جبرئيل (ع): يا رسول الله والذي أكرمك بالهدى لقد عجبت الملائكة المقرّبون من مواساة علي (ع) لك بنفسه.

فقال رسول الله (ص): يا جبرئيل وما يمنعه أن يواسيني بنفسه وهو منّي وأنا منه.

---

[118] – راجع بحار الأنوار: ج ٣٩ ص ٤٧ ب ٧٣ ح ١٥ بيان، و: ج ٤٢ ص ٥٧ ب ١١٨ ح ١.

[119] – بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ١٠٥ ب ١٢ ح ٣٠.

فقال جبرئيل (ع): وأنا منكما([120]).

فبكى علي (ع) سروراً وحمد الله على نعمته.

مصرع حمزة سيّد الشهداء

ولما اقتتل الناس وحميت الحرب كانت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان وسط المعركة، فكلما انهزم رجل من قريش دفعت إليه ميلاً ومكحلة وقالت: انما أنت امرأة فاكتحل بهذا.

وكان حمزة بن عبدالمطلب عم النبي (ص) يحمل على القوم، فإذا رأوه انهزموا ولم يثبت له أحد، وكانت هند قد أعطت وحشياً عهداً: بأنه إن قتل محمداً، أو علياً، أو حمزة، لأعطته رضاه، وكان وحشي عبداً لجبير بن مطعم حبشياً.

فقال وحشي: أما محمد فلا أقدر عليه، وأما علي فرأيته رجلاً حذراً كثير الإلتفات فلم أطمع فيه، وأمّا حمزة فإني أطمع فيه، لأنه إذا غضب لم يبصر بين يديه.

قال: فكمنتُ لحمزة، فرأيته يهدّ الناس هدّاً ما يقوم له شيء، فمرّ بي فوطئ على جرف نهر، فانهار به، فأخذت حربتي فهززتها ورميته، فوقعت في خاصرته وخرجت من ثنيته فسقط.

ثم جاءت هند وأخذت تمثّل بجسد حمزة فبقرت بطنه واستخرجت كبده فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، كما قطعت أصابعه وكل ما برز من جسمه وجعلتها قلادة لها.

وعلى رواية عن وحشي انه قال: فأتيت حمزة فشققت بطنه، فأخذت كبده وجئت بها إلى هند، فقلت لها: هذه كبد حمزة، فأخذتها في فمها فلاكتها، فجعلها الله في فيها مثل الداغصة، فلفظتها ورمت بها، فبعث الله ملكاً فحمله وردّه إلى موضعه.

قال أبو عبدالله (ع): أبى الله أن يدخل شيئاً من بدن حمزة النار.

ولما رأى رسول الله (ص) ما صنع بحمزة قال: (اللهمّ لك الحمد وإليك المشتكى، وأنت المستعان على ما أرى).

ثم قال . على رواية .: (ولئن ظفرت لامثلنّ ولأمثلنّ).

فأنزل الله تعالى: (وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)

---

[120] – الكافي: ج ٨ ص ٣١٨ ب ٨ ح ٥٠٢ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٠ ص ١٨٢ ب ١٩٠ و ج ١٣ ص ٢٦١ وج ١٤ ص ٢٥١ دار إحياء التراث العربي ط ٢.

.([121])

فقال رسول الله (ص): أصبر، ثم صلّى على حمزة سبعين صلاة، وكبّر عليه سبعين تكبيرة، ودفنه في ثيابه بدمائه التي أُصيب فيها.

دناءة بني أُمية وأتباعهم

وروي: ان الحليس بن علقمة وهو سيد الأحابيش يوم أُحُد، نظر إلى أبي سفيان وهو على فرس وبيده رمح يجأ به في شدق حمزة، فقال الحليس: انظروا يا معشر بني كنانة إلى من يزعم انه سيد قريش ما يصنع بابن عمه الذي قد صار لحماً! وأبوسفيان يقول: ذق عقق.

فلما التفت أبوسفيان إلى الحليس وما يقوله قال له: صدقت، اكتمها عليَّ.

مع أبي دجانة

وكان أبو دجانة هو الآخر الذي كان يحمل على القوم حتى أمعن فيهم، وقد جعل من نفسه ترساً يقي رسول الله (ص) من سيوف الكفّار ورماحهم حين انكشف أصحابه عنه فقد ثبت هو ولم يكن من المنكشفين.

فالتفت إليه رسول الله (ص) وقال: يا أبا دجانة أما ترى قومك؟

قال: بلى.

قال: فالحق بقومك، وأنت في حلّ من بيعتي.

فبكى أبو دجانة وقال: لا والله لا جعلتُ نفسي في حلّ من بيعتي، إنّي بايعتك، فإلى من أنصرف يا رسول الله، إلى زوجة تموت، أو ولد يموت، أو دار تخرب، أو مال يفنى، أو أجل قد اقترب؟

فرقّ له رسول الله (ص).

فلم يزل يقاتل حتى أثخنته الجراحة وهو في وجه، وعلي (ع) في وجه، فلما سقط احتمله علي (ع) فجاء به إلى النبي (ص) فوضعه عنده فقال: يا رسول الله أوَفيتُ ببيعتي؟

قال: نعم، ودعا له بخير، فالتأمت جراحاته وعاش حتى كان يوم اليمامة، فاشترك فيها

---

[121] – النحل: ١٢٦.

كما كان يشترك في غيرها من قبل، وقاتل حتّى قُتِل شهيداً.

الثابتون مع الرسول (ص)

وكان ممّن قاتل مع رسول الله (ص) يوم أُحُد نسيبة المازنية أُم عمارة وابناها عبدالله بن زيد، وعمارة بن غزية، وزوجها غزيّة.

يقول عبدالله بن زيد: شهدتُ أُحُداً مع رسول الله (ص)، فلمّا تفرّق الناس عنه دنوتُ منه وأُمّي تذبّ عنه.

فقال (ص): يا ابن أُم عمارة؟

قلت: نعم.

قال: ارم، فرميت بين يديه رجلاً من المشركين بحجر وهو على فرس، فأُصيب عين الفرس، فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه.

ثم نظر (ص) إلى جرح بأُمّي على عاتقها، فقال: أُمّك أُمّك، اعصب جرحها بارك الله عليكم، لمقامك ومقام أخيك ومقام أُمّك ومقام زوج أُمك خير من مقام المنكشفين والمنهزمين عنّي.

ثم قال (ص): رحمكم الله من أب وأُم واخوة.

قال: فقالت أُمّي وهي لا تملك نفسها فرحاً: ادع لنا يا رسول الله أن نرافقك في الجنّة.

فقال: اللهمّ اجعلهم رفقائي في الجنّة.

فقالت: ما أُبالي بعدها ما أصابني من الدنيا.

عمرو بن الجموح والشهادة

وكان عمرو بن الجموح رجلاً ذا عرج في رجله، فلما كان يوم أُحُد شهد مع النبي أربعة من ولده، أمّا هو فأراد قومه أن يحبسوه وقالوا له: انك ممّن لا حرج عليه، وقد ذهب بنوك الأربعة مع النبي (ص) فابق عندنا.

فأجابهم قائلاً: بخ لهم يذهبون إلى الجنّة، وأنا أجلس عندكم؟

فقالت امرأته: كأنّي أنظر إليه مولّياً قد أخذ درقته وهو يقول: اللهمّ لا تردّني إلى أهلي، فخرج ولحقه بعض قومه يكلّمونه في القعود، فأبى.

ثم جاء إلى رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله انّ قومي يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك، والله انّي لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنّة.

فقال له (ص): أمّا أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك، فأبى.

فقال النبي (ص) لقومه وبنيه: (لا عليكم أن لا تمنعوه، لعلّ الله يرزقه الشهادة) فخلّوا عنه، فبقي في صفوف المسلمين وقاتل فقتل يومئذ شهيداً.

وبعد شهادته، أقبلت إليه امرأته لتحمله مع ابنها خلاّد وأخيها عبدالله والد جابر الأنصاري، فحملتهم على بعير تريد بهم المدينة.

فالتقى بها بعض النساء اللاتي خرجن يتفقّدن خبر رسول الله (ص) فسألنها عنه؟

فقالت: خيراً، أمّا رسول الله (ص) فصالح، وكلّ مصيبة بعده جلل، أي: قليل، واتّخذ الله من المؤمنين شهداء، وهؤلاء: ابني وأخي وزوجي أحملهم لأدفنهم في المدينة، فسارت بهم، فلما بلغت منقطع الحرّة برك البعير، فكانت كلما توجّهه إلى المدينة برك، وإذا وجّهته إلى أُحُد أسرع.

فرجعت إلى النبي (ص) فأخبرته بذلك.

فقال (ص): انّ الجمل لمأمور، هل قال عمرو بن الجموح شيئاً؟

قالت: نعم يا رسول الله، انه لما توجّه إلى أُحُد استقبل القبلة ثم قال: اللهمّ لا تردّني إلى أهلي وارزقني الشهادة.

فقال (ص): (فلذلك الجمل لا يمضي، انّ منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبرّه، منهم عمرو بن الجموح، يا هذه ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن)؟

ثم مكث رسول الله (ص) في قبرهم ثم قال: انّهم قد ترافقوا في الجنّة جميعاً: بعلكِ وابنكِ وأخوكِ.

فقالت امرأته: يا رسول الله فادع لي عسى أن يجعلني معهم، فدعا لها بذلك.

الشهادة والمساهمة عليها

وكان خيثمة أبو سعد بن خيثمة ممّن قاتل بين يدي رسول الله (ص) في أُحُد ونال الشهادة، فقد أشار على رسول الله (ص) بالخروج من المدينة لمجابهة قريش والتعرّض للنصر أو

الشهادة قائلاً: لقد بلغ من حرصي على الشهادة أن ساهمت ابني في الخروج إلى بدر فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيته البارحة في النوم وهو في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنّة وأنهارها، ويقول لي: ألحق بنا ترافقنا في الجنّة، وقد كبرت سنّي، ورقّ عظمي، وأحببت لقاء ربّي، فادع الله أن يرزقني الشهادة.

فدعا له رسول الله (ص) بذلك، فقاتل بين يديه حتى قتل بأُحد شهيداً.

غسيل الملائكة

وكان حنظلة غسيل الملائكة رجل من الخزرج تزوّج في الليلة التي كانت صبيحتها حرب أُحُد، فلما أصبح خرج ولم يغتسل وحضر القتال.

فالتقى بأبي سفيان بن حرب وهو يجول بين العسكر، فحمل عليه فضرب عرقوب فرسه، فاكتسعت الفرس وسقط أبوسفيان إلى الأرض فصاح: يا معشر قريش أنا أبو سفيان وهذا حنظلة يريد قتلي، ثم عدا يركض نحو قومه وحنظلة في طلبه.

فعرض له شداد بن الأسود الليثي فطعنه، فمشى حنظلة في طعنته فضرب الليثي فقتله، وسقط حنظلة إلى الأرض بين حمزة وعمرو بن الجموح وعبدالله بن حزام، وجماعة من الأنصار.

فقال رسول الله (ص): رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف من ذهب، فكان يسمّى (غسيل الملائكة) لأنه خرج من عند زوجته إلى القتال مسرعاً ولم يغتسل من جنابته.

وقال أبو سفيان: حنظلة هذا بحنظلة وهو يقصد ابنه حنظلة الذي قتل ببدر.

عين قتادة

وكان ممّن شهد أُحُد وقاتل دون رسول الله (ص) قتادة بن النعمان، فأُصيبت عينه حتى وقعت على وجنته، فأخذها بيده وجاء إلى النبي (ص) وقال: يا رسول الله اني جديد عهد بالزواج وامرأتي شابة أُحبّها وتحبّني وأنا أخشى أن تكرهني مكان عيني.

فأخذها رسول الله (ص) فردّها إلى مكانها، فأبصرت وعادت كما كانت لم تؤلمه ساعة من ليل ولا نهار.

فكان يقول بعد أن كبر وطعن في السنّ: هي أقوى عينيَّ، وكانت أحسنهما.

يد ابن عتيك

وكان ممّن شهد أُحُد وأبلى مع رسول الله (ص) بلاءاً حسناً عبدالله بن عتيك فأُصيب يده فأُبينت، فأخذها وجاء بها إلى رسول الله (ص) واشتكى له ما يلقاه من ألمها.

فأخذها رسول الله (ص) وأركبها في محل قطعها ومسح عليها بيده الكريمة، فاستوت يد عبدالله كأن لم يكن بها شيء.

نيف وسبعون جراحة

قال أنس بن مالك: أُتي رسول الله (ص) بعلي (ع) يوم أُحُد وعليه نيف وسبعون جراحة من طعنة وضربة ورمية، فجعل رسول الله (ص) يمسحها وهي تلتئم بإذن الله تعالى، كأن لم تكن.

وقيل: انّ رسول الله (ص) أخذ الماء بفمه فرشّه على جراحاته، فكأنّها لم تكن من وقتها.

المتجرّئون على رسول الله (ص)

ورمى ابن قميئة الليثي رسول الله (ص) بقذافة فأصاب كفّه، وضربه عتبة بن أبي وقاص بالسيف حتى أدمى فاه، ورماه عبدالله بن شهاب بقلاعة فأصاب مرفقه، وليس أحد من هؤلاء مات ميتة سوية:

فأما ابن قميئة، فقد سلّط الله عليه الشجر، فكان إذا مرّ بها وقع في وسطها فتأخذ من لحمه، فلم يزل كذلك حتى صار مثل الصرّ ومات.

وقيل: انه أتاه تيس جبل وهو نائم بنجد، فوضع قرنه في مراقّه ثم دعسه فجعل ينادي: واذلاّه حتى أخرج قرنيه من ترقوته ومات.

وأما عتبة بن أبي وقاص فمات على كفره قبل أن يحول عليه الحول، وكذلك كان مصير ابن شهاب.

ورمى المغيرة بن العاص رسول الله (ص) بحجر فأصاب جبهته (ص)، فضرب الله المغيرة بالتحيّر، فلما انكشف الناس تحيّر فلحقه عمار بن ياسر فقتله.

مع أُبيّ بن خلف

وروي: ان أُبيّ بن خلف قال للنبي (ص) بمكة: انه يعلف فرساً له ليقتله يوماً عليها.

فقال له رسول الله (ص): لكن أنا إن شاء الله تعالى.

فأقبل أُبي يوم أُحد على فرسه وحمل على رسول الله (ص) وكان الرسول بين الحارث بن صمّة وسهل بن حنيف، فوقاه مصعب بن عمير بنفسه، فطعن مصعباً فقتله.

فأخذ رسول الله (ص) عنزة كانت في يد سهل بن حنيف ثم طعن أُبيّاً في جرّبان الدرع، فاعتنق فرسه وانتهى إلى عسكره وهو يخور خوار الثور.

فقال له أبوسفيان: ويلك ما أجزعك؟ انما هو خدش ليس بشيء.

فقال: ويلك يا ابن حرب أتدري من طعنني؟ انما طعنني محمد وهو قال لي بمكة: اني سأقتلك، فعلمت انه قاتلي، والله لو انّ ما بي كان بجميع أهل الحجاز لقضت عليهم، فلم يزل يخور حتى مات.

فلما سكن القتال قال رسول الله (ص): من يطلب لنا سعد بن الربيع، وأشار بيده إلى موضع من المعركة.

فجاء رجل نحو الموضع يطلبه، فرآه صريعاً بين القتلى.

فقال: يا سعد، فلم يجبه، حتى قال له: يا سعد إنّ رسول الله (ص) يسأل عنك.

فرفع سعد رأسه وانتعش كما ينتعش الفرخ، ثم قال بصوت ضعيف: انّ رسول الله (ص) لحيّ؟

فقال له: نعم.

قال سعد: الحمد لله، أبلغه عنّي السلام، وأبلغ قومي الأنصار عنّي السلام وقل لهم: والله ما لكم عند الله عذر ان تشوك رسول الله (ص) شوكة وفيكم عين تطرف، ثم تنفّس فخرج

منه مثل دم الجزور وقضى نحبه شهيداً.

فجاء الرجل وأخبر بذلك رسول الله.

فقال (ص): (رحم الله سعداً نصرنا حيّاً، وأوصى بنا ميتاً).

يوم بلاء وتمحيص

ولما انكشف المسلمون يوم أُحد وانهزموا أصاب فيهم العدو، فكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم بالشهادة، وقد خلص العدو إلى رسول الله (ص) فدُق بالحجارة حتى شج في وجهه وكلمت شفته السفلى، وكادوا أن يقتلوه (ص) لولا حفظ الله تعالى له، فقام رافعاً يديه إلى السماء وهو يقول: (إنّ الله اشتدّ غضبه على اليهود حين قالوا: عزير ابن الله، واشتدّ غضبه على النصارى ان قالوا: المسيح ابن الله، وان الله اشتدّ غضبه على من أراق دمي، وآذاني في عترتي) ([١٢٢]).

وفي الحديث: انه كلما سال الدم على وجهه المبارك (ص) تناوله بيده فرمى به في الهواء، فلا يرجع منه شيء.

قال أبو عبدالله (ع): والله لو سقط منه شيء على الأرض لنزل العذاب.

وقيل له (ص): ألا تدعو عليهم؟

فقال (ص): (اللهمّ اهد قومي فإنّهم لا يعلمون).

ثم كان يقول (ص) أسفاً عليهم: (كيف يفلح قوم خضّبوا وجه نبيّهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله)؟

رجل من أهل الجنّة

وقيل: انه لما شج (ص) في وجهه واختضبت وجنتاه بالدم، أقبل مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري فامتصّ الدم من وجنة رسول الله (ص) فاستساغه ولم يمجّه.

فقال (ص) له: مجّه.

---

[١٢٢] – بحار الأنوار: ج ٢٧ ص ٢٠٦ ب ٨ ح ١٤.

فقال: والله لا أمجّه أبداً حتى يمتزج بلحمي ودمي فأكون عند الله من الفائزين بك.

ثم أدبر يقاتل، فقال النبي (ص): من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنّة فلينظر إلى هذا، فقاتل، فقتل شهيداً.

ابليس ينتهز الفرصة

وكان ممّن قاتل دون رسول الله (ص) حتى قُتل: مصعب بن عمير، وكان الذي قتله ابن قمئة وهو يظنه رسول الله، فصاح ابن قمئة: قتلت محمداً.

وصرخ الشيطان: ان محمداً قد قتل، فوقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين.

فقال بعضهم: نقاتل على ما قاتل عليه حتى نلحق به.

وقال آخرون: لو كان نبياً لما قتل، وارتد بعضهم، وانهزم بعضهم، وقال بعضهم: لو أرسلنا إلى أبي سفيان من يأخذ لنا أماناً منه، وبعضهم جلسوا وألقوا بأيديهم.

فمرّ أنس بن النضر بقوم قد ألقوا بأيديهم فقال: يا قوم ما تنتظرون؟

فقالوا: قتل رسول الله (ص).

قال: فما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه.

ثم استقبل الناس، ولقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد اني لأجد ريح الجنّة من دون أُحد.

ثم استقبل المشركين وقال: اللهم إنّي أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني بعض المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعني المنافقين.

ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل.

وذهبت صيحة ابليس حتى دخلت بيوت المدينة، فبكت فاطمة(ع) ولم تبق هاشمية ولا قرشيّة إلا وضعت يدها على رأسها، وخرجت فاطمة(ع) باكية حتى انتهت هي وصفيّة إليه (ص).

فلما دنت فاطمة(ع) ورأت ما بأبيها (ص) من الجراحات خنقتها العبرة، وجعلت تمسح الدم وتقول: اشتدّ غضب الله على من أدمى وجه رسول الله (ص).

المسلمون يثوبون

ثم أقبل رسول الله (ص) نحو المسلمين، وكان أول من عرفه كعب بن مالك الشاعر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله (ص).

فأشار إليه رسول الله (ص) أن اصمت، فانحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم النبي (ص) على الفرار.

فقالوا: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأُمهاتنا أتانا الخبر بأنك قتلت، فرعبت قلوبنا فولّينا مدبرين، فأنزل الله تعالى: (وَما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ)([123]).

وقيل: نزلت هذه الآية عندما رجع رسول الله (ص) من أُحد إلى المدينة، فاستقبله أهلها بأجمعهم وهم يبكون ويطلبون التوبة ويقرّون بالذنب، ونساء الأنصار قد خدشن الوجوه، ونشرن الشعور، وجززن النواصي، وخرقن الجيوب، وحزمن البطون على النبي (ص)، فلمّا رأينه قال لهنّ خيراً وأمرهنّ أن يتستّرن ويدخلن منازلهنّ، وقال: ان الله عزوجل وعدني أن يظهر دينه على الأديان كلها، ثم قال لهم رسول الله (ص):

(أيها الناس انكم رغبتم بأنفسكم عنّي، ووازرني علي وواساني، فمن اطاعه فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني وفارقني في الدنيا والآخرة) ([124]).

صاحب المهراس

روي انه لما صاح ابليس بالمدينة: قتل محمد لم يبق أحد من نساء المهاجرين والأنصار إلاّ وخرجت، كما وخرجت فاطمة بنت رسول الله (ص) تعدو على قدميها، حتى وافته وقعدت بين يديه تبكي لما رأت ما أصاب أبيها رسول الله (ص) من الجراحات، وأقبل علي بن أبي طالب (ع) وقد ملأ درقته بماء من المهراس([125]) فجاء به رسول الله (ص) ليشرب منه، ثم

---

[123] – آل عمران: ١٤٤.

[124] – بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ١٠٦ ب ١٢ ح ٢٠.

[125] – قيل هو صخرة منقورة تسع كثيراً، وقيل: هو اسم ماء بأحد.

غسل به عن وجهه الدم، وإليه يشير قول علي (ع) يوم الشورى: (نشدتكم بالله هل فيكم أحد وقفت الملائكة معه يوم أُحد حين ذهب الناس غيري؟ قالوا: لا. قال: نشدتكم بالله هل فيكم أحد سقى رسول الله (ص) من المهراس غيري؟ قالوا لا).

وعن سهل: انه سئل عن جرح رسول الله (ص) فقال: والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله (ص) ومن كان يسكب الماء؟

كانت فاطمة ابنته تغسله وعلي بن أبي طالب يسكب الماء، فلما رأت فاطمة أن الماء لايزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها فاستمسك الدم.

الصلاة في زوال أُحد

وذكر مولى عفرة: ان النبي (ص) صلّى الظهر يوم أُحد قاعداً من الجراح، وكذلك صلّى المسلمون خلفه قعوداً من شدة ما بهم، وقد انهزم قوم من المسلمين يومئذ فبلغ بعضهم إلى الحلوب دون الأعوص.

فلمّا قدموا بعد ثلاثة أيام من هزيمتهم قال لهم رسول الله (ص): إلى أين انتهيتم؟

قالوا: إلى الأعوص.

قال: لقد ذهبتم فيها عريضة، أي: واسعة.

دأب بني أُمية وأتباعهم

ولما انكشف المسلمون عن رسول الله (ص) اشتغل المشركون ونساؤهم بقتلى المسلمين يمثلون بهم ويقطعون الآذان والأُنوف وغيرها، ويبقرون البطون، ويستخرجون منها الأكباد والكلى.. فلما تتبّع المسلمون قتلاهم لم يجدوا قتيلاً إلاّ وقد مثلوا به، إلاّ حنظلة غسيل الملائكة، فإنّ أباه وهو أبو عامر الراهب الذي سماه رسول الله (ص) أبو عامر الفاسق وهو صاحب مسجد ضرار، كان مع المشركين فترك له، وكان حمزة عم النبي (ص) أكثر من مثّل به من بين القتلى.

خاتمة القتال

ولما قتل جمع من المسلمين وفرّ آخرون، واضطربت الصفوف وتداخلت، جَمَع رسول الله

(ص) من بقي معه من المسلمين ثم حمل هو (ص) وعلي (ع) والمسلمون معه حملة رجل واحد على القوم، فانهزم المشركون وتشتّت أمرهم وانصرفوا إلى مكة ولم يصلوا إلى ما أرادوا من قتل الرسول (ص) وابادة المسلمين، فكان النصر أخيراً للمسلمين وإن قتل منهم جمع كثير.

هتافات متقابلة

ولما أراد أبوسفيان الانصراف أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: انعمت فعال، ان الأيام دول، وان الحرب سجال، يوم بيوم بدر.

فقال رسول الله (ص): ألا تجيبونه؟

قالوا: يا رسول الله ما نقول؟

قال (ص): قولوا: لا سواء، قتلانا في الجنّة وقتلاكم في النار.

فقال أبوسفيان: لنا العزّى ولا عزّى لكم.

فقال رسول الله (ص): ألا تجيبونه؟

قالوا: يا رسول الله ما نقول؟

قال (ص): قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم.

فقال أبو سفيان: اعل هبل.

فقال رسول الله (ص): ألا تجيبونه؟ قولوا: الله أعلى وأجلّ.

ولما انصرف أبوسفيان ومن معه نادى: أحيّ ابن أبي كبشة؟ فأما ابن أبي طالب فقد رأيناه مكانه.

فقال له علي (ع): أي والذي بعثه بالحقّ انه (ص) ليسمع كلامك.

فقال أبوسفيان: لعن الله ابن قمئة زعم انه قتل محمداً، ثم قال: انه قد كانت في قتلاكم مُثلة، وانّ موعدنا وموعدكم بدراً في العام القابل.

فقال رسول الله (ص) لعلي (ع): قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

استطلاع أخبار القوم

ثم بعث رسول الله (ص) علي بن أبي طالب (ع) وقال: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا

يصنعون وماذا يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن كانوا ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأُناجزنهم.

قال علي (ع): فخرجت في أثرهم أنظر ما يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة، فلما وقع نظر أبي سفيان على علي (ع) قال له: يا علي ما تريد هو ذا نحن ذاهبون إلى مكة، فانصرف إلى صاحبك فأخبره.

فأتبعهم جبرئيل (ع)، فكلّما سمعوا حافر فرسه جدّوا في السير، وكان يتلوهم فإذا ارتحلوا قالوا: هو ذا عسكر محمد قد أقبل، ومازالوا كذلك حتى دخلوا مكة منهزمين ومرعوبين.

انّ الله بالغ أمره

وروي: انه لما انصرف أبوسفيان ومن معه من غزاة أُحد وبلغوا الروحاء، ندموا على انصرافهم عن المسلمين وتلاوموا فقالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم.

فبلغ ذلك الخبر رسول الله (ص) فأراد أن يرهب العدوّ ويريهم من نفسه وأصحابه قوّة، فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان وقال: (ألا عصابة تشدّد لأمر الله تطلب عدوّها، فإنها انكاء للعدوّ وأبعد للسمع) فانتدب عصابة منهم مع ما بهم من القرح والجرح الذي أصابهم يوم أُحُد وامتثلوا ما أمرهم به.

مدفن الشهداء

ولما وضعت الحرب أوزارها يوم أُحد، حمل كل واحد قتيله على جمل ليدفنوهم في المدينة، فكانوا كلما توجّهوا بهم نحو المدينة بركت الجمال، وإذا توجّهوا بهم نحو المعركة أسرعت.

فشكوا ذلك إلى رسول الله (ص) فقال: ألم تسمعوا قول الله تعالى: (قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ) ([126]) فأرجعهم (ص) إلى مكانهم ودفنهم بثيابهم الملطّخة بالدماء كل رجلين في قبر ـ على رواية ـ الاّ حمزة (ع) فإنه دفن وحده.

---

[126] – آل عمران: ١٥٤.

على مشارف المدينة

ثم انصرف المسلمون مع النبي (ص) إلى المدينة، فاستقبلته فاطمة(ع) ومعها اناء فيه ماء، فغسل به وجهه، فلمّا رأته فاطمة(ع) ([١٢٧]) قد شجّ في وجهه وأُدمي فوه ادماءاً بكت(ع) وجعلت تمسح الدم وتقول: اشتد غضب الله على من أدمى وجه رسول الله (ص).

وكان معه (ص) علي (ع) وقد خضب الدم يده إلى كتفه، ومعه ذوالفقار، فناوله فاطمة(ع) وقال لها: خذي هذا السيف فقد صدقني اليوم، وأنشأ يقول:

أفاطم هاك السيف غير ذميم***فلست برعديد ولا بمليم

لعمري لقد أعذرت في نصر أحمد***وطاعة ربٍ بالعباد عليم

اميطي دماء القوم عنه فإنه***سقى آل عبدالدار كأس حميم

وقال رسول الله (ص): خذيه يا فاطمة فقد أدّى بعلك ما عليه، وقد قتل الله بسيفه صناديد قريش.

مع ابنة جحش

فلما ارتحل رسول الله (ص) ودخل المدينة، استقبلته النساء يولولن ويبكين، فاستقبلته زينب بنت جحش، فقال لها رسول الله (ص): احتسبي.

فقالت: من يا رسول الله؟

قال (ص): أخاك.

قالت: (إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ) ([١٢٨]) هنيئاً له الجنّة.

ثم قال (ص) لها: احتسبي.

فقالت: من يا رسول الله؟

---

[١٢٧] – قد سبق أنها (صلوات الله عليها) خرجت إلى أُحُد بعدما سمعت النداء بقتل أبيها (ص) وذلك على رواية، أو أنها رجعت بعد ذلك ثم استقبلته (ص) عند رجوعه.

[١٢٨] – البقرة: ١٥٦.

قال (ص): حمزة بن عبدالمطلب.

قالت: (إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ) ([١٢٩]) هنيئاً له الشهادة.

ثم قال لها: احتسبي.

فقالت: من يا رسول الله؟

قال (ص): زوجك مصعب بن عمير.

قالت: واحزناه.

فقال رسول الله (ص): انّ للزوج عند المرأة لحدّاً ما لأحد مثله.

فقيل لها: لم قلت ذلك في زوجك؟

قالت: ذكرت يتم ولده.

النساء المخلصات

وكانت امرأة من بني النجار قتل أبوها وزوجها وأخوها مع رسول الله (ص)، فدنت من رسول الله (ص) والمسلمون قيام على رأسه، فقالت لرجل متسائلة بتلهّف: أحيّ رسول الله (ص)؟

قال: نعم.

قالت وهي مستبشرة: أستطيع أن أنظر إليه؟

قال: نعم.

فأوسعوا لها، فدنت منه (ص) وقالت: كل مصيبة جلل بعدك يا رسول الله، ثم انصرفت.

البكاء على حمزة

ولما انصرف رسول الله (ص) إلى المدينة بعد أن صلّى على القتلى ودفنهم بثيابهم ودمائهم، مرّ بدور في المدينة، فسمع بكاء النوائح على قتلاهنّ، فترقرقت عينا رسول الله (ص) بالدموع وبكى ثم قال: لكن حمزة لا بواكي له.

فلمّا سمعها سعد بن معاذ واسيد بن حضير قالا: لا تبكينّ امرأة حميمها حتى تأتي

---

[١٢٩] – البقرة: ١٥٦.

فاطمة(ع) فتسعدها بالبكاء.

فلما سمع رسول الله (ص) الواعية على حمزة وهو عند فاطمة(ع) على باب المسجد قال: ارجعن يرحمكنّ الله فقد آسيتنّ بأنفسكنّ.

غزوة حمراء الأسد

ولما وافى اليوم الثاني من انتهاء معركة أُحد، أذّن مؤذّن رسول الله (ص) في الطلب للعدو، وعهد رسول الله (ص) أن لا يخرج معه أحد إلا من حضر المعركة يوم أُحد، حيث قال: ألا لا يخرجنّ معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، ألا من كانت به جراحة فليخرج، ومن لم تكن به جراحة فليقم.

فخرج معه سبعون رجلاً ممّن أثقلهم الجراح وهم يأملون أن لا تفوتهم غزوة مع رسول الله (ص).

وقدّم (ص) علياً (ع) بين يديه براية المهاجرين، واستأذنه جابر بن عبدالله في أن يفسح له في الخروج معه، ففسح له في ذلك، فخرجوا على ما بهم من الجهد والجراح، وإنما خرج (ص) مرهباً للعدوّ ومتجلّداً، وذلك بعد أن استخلف على المدينة ابن أُمّ مكتوم، فبلغ حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة.

وهناك مرّ برسول الله (ص) معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله (ص) مسلمهم وكافرهم، لايخفون عليه شيء، ومعبد يومئذ مشرك. فقال: يا محمد، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم.

ثم خرج معبد من عند رسول الله (ص) حتى لقي أباسفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا على الرجعة إلى رسول الله (ص) وأصحابه وهم يقولون: أصبنا جلّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم؟ فلنكرنّ على بقيتهم فلنفرغن منهم.

فلما رأى أبوسفيان معبداً، قال: ما وراءك يا معبد؟

قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرّقاً، وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما ضيّعوا وفيهم من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط.

قال: ويلك ما تقول؟

قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل.

فساء ذلك أباسفيان ومن معه، ووقع في قلوبهم الرعب مما دعاهم إلى الإنصراف عما عزموا عليه، والرجوع إلى مكة.

هذا ورسول الله (ص) لما نزل بحمراء الأسد أمر أصحابه في الليل بأن يوقدوا حولهم نيراناً كثيرة، فأوقدوا خمسمائة نار كانت ترى من بعيد.

فتصوّر المشركون ان النبي (ص) يقفوا أثرهم في عدد عظيم من أصحابه، فتشاوروا فيما بينهم ثم عزموا على الإنصراف إلى مكة.

وأقام رسول الله (ص) بأصحابه هناك ثلاثة أيام، فلما اطمئنّوا من انصراف المشركين عن الكرّة عليهم رجعوا إلى المدينة فوصلوها يوم الجمعة بعد أن غابوا عنها خمسة أيّام.

سرية الغنويّ إلى الرجيع

والرجيع . بفتح الراء وكسر الجيم . اسم ماء لهذيل بين مكة وعسفان، وكانت الوقعة بالقرب منه.

وذلك انه قدم على رسول الله (ص) أوائل شهر صفر على رأس أربعة أشهر من أُحد نفر من عضل والقارة، وقيل: من عضل والديش، وهما بطنان من العرب، فذكروا للنبي (ص) أنّ فيهم إسلاماً، ورغبوا أن يبعث معهم نفراً من المسلمين يعلّمونهم القرآن ويفقّهونهم في الدين.

فبعث رسول الله (ص) ستة رجال من أصحابه، وقيل: سبعة، وقيل: عشرة، فيهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، فجعله أميراً عليهم حتى إذا صاروا بالرجيع غدروا بهم، واستصرخوا عليهم هذيلاً، فوقع بين الجانبين قتال شديد أسفر عن غلبة المشركين لكثرتهم، واندحار المجموعة الصغيرة من المسلمين لقلّتهم وعدم تهيّئهم للحرب والقتال.

سرية منذر إلى بئر معونة

وبئر معونة . بضم العين . موضع ببلاد هذيل بين أرض بني عامر وحرة بني سليم، وهي الى حرة بني سليم أقرب.

وذلك في أواسط شهر صفر على رأس أربعة أشهر من أُحد أيضاً، ولكن قبل أن يصل إلى المدينة أنباء الغدر بسرية الغنوي إلى الرجيع.

وكان سببها: ان أبا البراء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة قدم على رسول الله (ص)، فعرض (ص) عليه الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد، وقال: يا محمد: انّ أمرك هذا الذي تدعو إليه حسن جميل، فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك.

فقال رسول الله (ص): إنّي أخشى أهل نجد عليهم.

فقال أبوبراء: أنا لهم جار، فابعثهم.

فبعث (ص) المنذر بن عمرو في بضعة وعشرين رجلاً، وقيل: في أربعين رجلاً، وقيل: في سبعين، وكانوا من خيار المسلمين ومن القرّاء، يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل، ويتدارسون القرآن.

فساروا حتى إذا نزلوا بئر معونة بعثوا حرام بن ملحان بكتابه (ص) إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله.

ثم استصرخ عليهم بني عامر فلم يجيبوه وقالوا: نحن لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ قبائل من بني سليم: عصيّة ورعلا وذكوان، فأجابوه إلى ذلك.

ثم خرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن زيد، فإنهم تركوه وبه رمق، فارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً.

وأسر عمرو بن أُمية الضمريّ، فلما أخبرهم أنه من مضر أخذه عامر بن الطفيل وجزّ ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أُمه.

فقدم عمرو بن أُميّة الضمري إلى رسول الله (ص) وأخبره الخبر، فنعاهم إلى أصحابه وقال: انّ أصحابكم قد أُصيبوا وانهم قد سألوا ربهم وقالوا: ربّنا أبلغ عنّا قومنا بأنا قد لقينا ربّنا فرضي عنّا ورضينا عنه.

ولما بلغ ذلك أبا براء، شقّ عليه اخفار عامر إياه وما أصاب أصحاب رسول الله (ص) بسببه وجواره، ونزل به الموت، فحمل ربيعة بن أبي براء . لما وصله الخبر . على عامر بن

الطفيل وهو في نادي قومه فأخطأ مقاتله فأصاب فخذه.

فقال عامر: هذا عمل عمي أبي براء، فلم يجرأ على الثأر منه.

وقيل: ان خبر بعث الرجيع، وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبي (ص) في ليلة واحدة فحزّ ذلك في قلبه وقلوب المسلمين، وعرف المسلمون ان الغدر والفتك من عادة الجاهلية والجاهليّين، ولايمكن قلعه ولا اجتثاث جذوره إلاّ بنشر الإسلام وابلاغ تعاليمه الأخلاقية إلى الناس كافة، فاندفعوا وبكل قوّة إلى نشر الإسلام وتبليغ أحكامه والإلتزام بإطاعة الله ورسوله (ص).

غزوة بني النضير

مضى فيما سبق: انه لما دخل رسول الله (ص) المدينة صالحه بنو النضير كبقيّة اليهود على أن لايقاتلوه، ولايقاتلوا معه، فقبل ذلك منهم.

فلما غزا رسول الله (ص) بدراً وظهر على المشركين قالوا: والله انه للنبيّ الذي وجدنا نعته في التوراة لاتردّ له راية، فلما غزا أُحد وانهزم المسلمون ارتابوا ونقضوا العهد وأتوا قريشاً وحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد (ص)، فنزل جبرئيل وأخبر النبي (ص) بالخبر.

ولكي يظهر النبي (ص) نوايا بني النضير العدوانية التي أضمروها للمسلمين، ويكشف واقعهم السيّء للرأي العام، خرج (ص) إليهم يوم السبت في شهر ربيع الأول وصلى في مسجد قبا ومعه نفر من أصحابه دون العشرة، ثم أتاهم فكلّمهم أن يقرضوه في دية بعض القتلى. وكان الإستقراض جارياً بينهم. فقالوا: نقرضك ما أحببت.

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذه الحال. وكان (ص) إلى جنب جدار من بيوتهم.

فقالوا: من رجل يعلو على هذا البيت فيلقي هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه؟

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش، فقال: أنا لذلك.

فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا، والله ليخبرنّ بما هممتم به، وانه لنقض العهد الذي بيننا وبينه.

فجاء جبرئيل وأخبر رسول الله (ص) الخبر، فخرج راجعاً إلى المدينة، وذلك بعد أن

أوصى علياً (ع) بأن لايبرح من مكانه، وأن يخبر من سأله عنه من أصحابه بتوجّهه إلى المدينة، ففعل ذلك، ثم لحقوا به فقالوا: قمت يا رسول الله ولم نشعر.

فقال: همّت اليهود بالغدر فأخبرني الله بذلك فقمت.

ثم أرسل (ص) إليهم من يأمرهم بالجلاء من منازلهم، وكانت منازلهم بناحية الفرع وما والاها بقرية يقال لها: زهرة، وأمهلهم عشرة أيام.

فوصل الخبر إلى ابن أُبي فأرسل إليهم من ينهاهم عن الخروج ويعدهم نصرة قومه لهم، وامداد قريظة وحلفاءهم من غطفان، فطمعوا في ذلك.

فخرج إليهم رسول الله (ص) فصلّى العصر بفناء بني النضير وعلي (ع) يحمل رايته واستخلف على المدينة ابن أُمّ مكتوم.

فلما رأوا رسول الله (ص) قاموا على حصونهم معهم النبل والحجارة، فاعتزلتهم قريظة، وخفرهم ابن أُبيّ، فحاصرهم رسول الله (ص) إحدى وعشرين ليلة، وقذف الله الرعب في قلوبهم فعزموا على الخروج من المدينة من دون قتال.

فقال لهم رسول الله (ص): أُخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة وهي السلاح.

فخرجوا بالنساء والصبيان يزمّرون ويضربون بالدفوف، وتحمّلوا على ستمائة بعير حتى ان الرجل منهم يقلع باب بيته ويضعه على بعيره، ثم يخربون بيوتهم بأيديهم ويخرجون، فمنهم من صار إلى خيبر، ومنهم من صار إلى الشام، ومنهم من صار إلى الحيرة.

أموال بني النضير

وقبض رسول الله (ص) السلاح والأموال صافية له، لأن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب، وانما قذف الله في قلوبهم الرعب، فسلّموا بدون قتال ولا اراقة دماء، فكان ممّا أفاءه الله على رسوله.

فدعى رسول الله (ص) حينئذ الأنصار كلها الأوس والخزرج، فحمد الله وأثنى عليه وذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين، وانزالهم إيّاهم في منازلهم، واثرتهم على أنفسهم، ثم قال (ص): ان أحببتم قسّمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم

وخرجوا من دوركم.

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: يا رسول الله بل تقسّمه للمهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا.

ونادت الأنصار: رضينا وسلّمنا يا رسول الله.

فقال رسول الله (ص): (اللهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار) وقسّم ما أفاء الله عليه بين المهاجرين دون الأنصار إلا رجلين من الأنصار كانا محتاجين، ووسّع (ص) في الناس في أموال بني النضير، وأنزل الله تعالى في قصة بني النضير سورة الحشر، ومدح الأنصار ـ على رواية ـ بقوله: (وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ) ([١٣٠]).

وفي مجمع البيان عن أبي هريرة: ان الآية نزلت في شأن علي (ع) وفاطمة(ع) في ضيافة كانت لهما قد آثرا ضيفهما على أنفسهما.

وفي هذه الغزوة أبلى علي (ع) بلاءاً حسناً حيث قتل اليهود العشرة بقيادة رئيسهم عازورا الذين خرجوا من الحصن في ظلام الليل لعمليات تخريبية واغتيال النبي (ص) وكفى الله المؤمنين به شرهم، وفيه يقول حسّان بن ثابت:

الله أيّ كريهة أبليتها***ببني نضير والنفوس تطلّع

أردى رئيسهم وآب بتسعة***طوراً يشلّهم وطوراً يدفع

من أسلم من بني النضير

ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان: يامين بن عمير، وهو ابن عم عمرو بن جحاش الذي انتدب لإلقاء الصخرة على رسول الله (ص)، وأبو سعد بن وهب.

أسلما على أموالهما، واحرازها، وحسن اسلامهما، حتى أن يامين على ما قيل: جعل لرجل جعلاً على أن يقتل له ابن عمه عمرو بن جحاش على ما أراده من اغتيال رسول الله (ص) ففعل الرجل ذلك.

---

[١٣٠] – الحشر: ٩.

غزوة بني لحيان

ثم كانت بعد غزوة بني النضير غزوة بني لحيان، فقد خرج اليهم رسول الله (ص) يطلب بأصحاب الرجيع الذين غدر بهم بنو لحيان وقتلوهم عن آخرهم.

وأظهر (ص) عند خروجه إليهم انه يريد الشام ليصيب من القوم غرة يفاجئهم بها فيستسلموا من دون حرب فيقل القتل وسفك الدماء، ولذلك خرج (ص) وأخذ في السير حتى نزل على منازل بني لحيان بين أمَج وعسفان، فوجدهم قد حذروا وتمنّعوا في رؤس الجبال، فتركهم.

عندها قال المسلمون: لو انا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة انا قد جئنا مكة، فسار (ص) وهو في مائتي راكب حتى نزل عسفان تخويفاً لمشركي مكة، وجاز على قبر أُمه فزارها، وأرسل فارسين من الصحابة حتى بلغا كراع الغميم، ثم عادَ ولم يلق حرباً.

غزوة ذات الرقاع

وبعد مضي شهرين من غزوة بني النضير([131]) كانت غزوة ذات الرقاع، وسمّيت ذات الرقاع لأنهم رقعوا راياتهم.

وقيل: لأنهم كانوا بقرب جبل فيه بقعُ بياض وسواد وحمرة.

وقيل: لأن أقدامهم نقبت فيها، فكانوا يلفّون على أقدامهم الخِرق.

وقيل: لوقوع صلاة الخوف فيها وصلاة الخوف ترقيع للصلاة.

وكان سببها: ان قادماً قدم المدينة بمتاع له، فأخبر رسول الله (ص) بأن انماراً وثعلبة قد جمّعوا له الجموع يريدون اجتياح المدينة.

فخرج (ص) اليهم ليلة السبت لعشر خلون من المحرم في أربعمائة رجل، وقيل: في سبعمائة، وقيل: في ثمانمائة من أصحابه، فسار حتى نزل في محالّهم بذات الرقاع وهي جبل، فلقي المشركين ولم يقع بينهم حرب، ولكن خاف المسلمون أن يُغير المشركون عليهم، فنزلت صلاة الخوف، فصلّى رسول الله (ص) بأصحابه صلاة الخوف، وكان أول ما صلاّها.

---

[131] – وقيل: بعد فتح بني قريضة.

كرم رسول الله (ص) وحلمه

ونزل رسول الله (ص) في غزوة ذات الرقاع تحت شجرة على شفير واد، فأقبل سيل فحال بينه وبين أصحابه، فرآه رجل من المشركين، فقال لقومه: أنا أقتل محمداً فجاء وشدّ على رسول الله (ص) بالسيف وقال: من ينجيك منّي؟

فقال (ص): ربّي وربّك، فنسفه جبرئيل عن فرسه فسقط، فقام رسول الله (ص) فأخذ السيف وجلس على صدره وقال: من ينجيك منّي؟

قال: جودك وكرمك، فتركه (ص)، وقام الرجل فجاء إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس، فأسلم بسببه جماعة.

وفي رواية: انه عندما جلس (ص) على صدره قال له: تشهد أن لا إله إلا الله واني رسول الله؟ فقال الرجل: اعاهدك أن لا أُقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى (ص) سبيله، فجاء الرجل إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس...

ثبات وصمود

ثم انصرف رسول الله (ص) بأصحابه راجعاً إلى المدينة، وذلك بعد أن أصابوا بعض الغنائم، وفي الطريق باتوا في فم شعب، فانتدب عباد بن بشير وعمار بن ياسر للحراسة يتناوبانها بينهما.

فنام عمّار وقام عباد للحراسة واشتغل بالصلاة، وفي الأثناء جاء رجل من الأعداء وهو يريد اصابة شيء أو اراقة دم، فلما رأى طليعتهم عباد أخذ يرميه بالسهم تلو الآخر وعباد صامد لا يتحرك حتى إذا غلبه الدم ركع وسجد وأتمّ صلاته ثم أيقظ صاحبه وأخبره الخبر.

فقال له عمار: ألا أخبرتني أول ما رماك!

قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أُحب أن أقطعها، وأيم الله لولا خوفي أن أُضيّع ثغراً أمرني رسول الله (ص) بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها.

تفقّد الرسول (ص) أصحابه

وكان رسول الله (ص) يسير في مؤخّر القوم ليسعف الضعيف منهم، ويحمل معه من قعد به مركبه وعجز به عن حمله، وفي هذه المرّة وفي طريق العودة من ذات الرقاع التقى بجابر بن

عبدالله الأنصاري وقد تخلّف عن القوم فقال له:

ما لك يا جابر؟

قال جابر وهو يشير إلى جمله: أبطأ بي هذا.

فدنى رسول الله (ص) إلى الجمل، ومسح يده عليه فقوى الجمل وأخذ يواهق ناقته مواقهة، ثم قال لجابر: يا جابر أتبيعني جملك هذا؟

قال: بل أهبه لك يا رسول الله.

قال (ص): لا، ولكن بعنيه.

قال: اذن فساوِمني عليه يا رسول الله.

قال (ص): قد أخذته بدرهم.

قال: إذن تغبنني يا رسول الله.

قال (ص): فبدرهمين.

قال جابر: لا.

فلم يزل يرفع له رسول الله (ص) في ثمنه حتى بلغ الأوقية. فقال (ص): أرضيت يا جابر؟

قال جابر: نعم رضيت يا رسول الله فهو لك.

قال (ص): قد أخذته ولك ظهره إلى المدينة.

ثم قال له رسول الله (ص): هل تزوّجت يا جابر؟

قال: نعم يا رسول الله (ص).

قال (ص): ثيّباً أم بكراً؟

قال: بل ثيّباً، فابتسم رسول الله (ص) وقال: أفلا جارية؟

قال جابر وقد تنفّس الصعداء: يا رسول الله إنّ أبي أُصيب يوم أُحد وترك سبع بنات فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤسهنّ وتقوم عليهنّ.

وهنا تأثّر رسول الله (ص) حتى ظهر على قسمات وجهه الشريف آثاره وقال مستحسناً عمل جابر: أحسنت وأصبت يا جابر.

ثم سأله عن دَين أبيه فأخبره. فقال (ص) له: إذا دخلت المدينة وأردت أن تجذّ نخلك وتأخذ تمرها فأخبرني.

قال جابر: فدخلت المدينة وحدثت زوجتي الحديث وما قال لي رسول الله(ص). فقالت مستبشرة: فدونك، سمع وطاعة.

قال: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل حتى أنخته على باب المسجد، ثم جلست في المسجد قريباً منه، فخرج رسول الله (ص) إلى المسجد فرأى الجمل فقال: ما هذا؟

قالوا: يا رسول الله هذا جمل جابر.

قال (ص): وأين جابر هو؟ فدُعي له، فلما مثل بين يديه قال (ص) له: ياابن أخي خذ برأس جملك فهو لك، ثم دعا بلالاً وقال له: اذهب بجابر فاعطيه اوقية.

قال جابر: فذهبت معه فأعطاني اوقية وزادني.

الله أرحم بكم

ومما يذكر وقوعه في غزوة ذات الرقاع: انّ رجلاً جاء وفي يده فرخ طائر حتى إذا وصل إليهم رأوا انّ أبوي هذا الفرخ يرفرفان فوق رأسه، فلما استقرّ الرجل بينهم طرحا أنفسهما على فرخهما ولم يعبئا بالخطر شفقة ورحمة بفرخهما، فتعجّب الناس من ذلك.

فالتفت إليهم رسول الله (ص) وقال: أتعجبون من هذا الطائر، أخذتم فرخه، فطرح نفسه رحمة بفرخه؟ والله لربّكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه. ثم التفت (ص) بعد ذلك إلى الرجل وأمره بإطلاقه.

غزوة بدر الأخيرة

ولما قدم رسول الله (ص) من غزوة ذات الرقاع إلى المدينة أقام بها جمادى الأُولى إلى آخر رجب، ثم خرج في شعبان وقيل: أقام بها إلى آخر شوّال، ثم خرج في هلال ذي القعدة في السنة الرابعة من الهجرة النبوية المباركة إلى بدر لميعاد أبي سفيان.

وذلك انّ أبا سفيان قال يوم أُحد عند انصرافه منهزماً إلى مكة: الموعد بيننا وبينكم بدر العام القابل.

فقال رسول الله (ص) لعلي (ع) قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

فخرج رسول الله (ص) وحمل لوائه علي (ع) وسار معه ألف وخمسمائة من أصحابه، والخيل عشرة أفراس، وذلك بعد أن استعمل على المدينة عبدالله بن رواحة.

فلما وصلوا إلى بدر الصغرى ـ وكانت موضع سوق لهم في الجاهلية يجتمعون إليها في كل عام ثمانية أيام ـ أقاموا عليها ينتظرون أبا سفيان.

وخرج أبو سفيان من مكّة ومعه ألفان وخمسون فرساً حتى نزل مجنّة من ناحية مرّ الظهران ثم بدا له الرجوع، فبعث من يثبّط المسلمين عن الخروج إليهم ووعده على ذلك عشرة من الإبل يضعها له على يدي سهيل بن عمرو إن هو فعل ذلك.

ثم التفت أبو سفيان إلى مَن معه وقال: يا معشر قريش انه لا يصلحكم إلا عام خصب، وإن عامكم هذا عام جدب، واني راجع فارجعوا، فرجع ورجع من كان معه.

فسمّاهم أهل مكة: جيش السويق يقولون: انما خرجتم تشربون السويق.

وأقام رسول الله (ص) وأصحابه ببدر ثمانية أيام لم يلقوا فيها أحداً من المشركين، ووافقوا السوق وكانت لهم تجارات فباعوها وأصابوا الدرهم درهمين، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين.

مع أشجع وبني ضمرة

وفي الطريق مرّ رسول الله (ص) ومعه أصحابه قريباً من بلاد أشجع وبني ضمرة، وكان قد هادن بني ضمرة ووادعهم من قبل.

فقال أصحاب رسول الله (ص): يا رسول الله هذه بنو ضمرة قريباً منّا، ونخاف أن يخالفونا إلى المدينة، أو يعينوا علينا قريشاً، فلو بدأنا بهم؟

فقال رسول الله (ص): كلا انهم أبرّ العرب بالوالدين، وأوصلهم للرحم، وأوفاهم بالعهد.

وكانت (أشجع) بلادهم قريباً من بلاد بني ضمرة وهم بطن من كنانة، وكان بين أشجع وبني ضمرة حلف في المراعاة والأمان، فأُجدبت بلاد أشجع، وأُخصبت بلاد بني ضمرة، فصارت أشجع إلى بلاد بني ضمرة، فكان محالّها البيضاء والجبل والمستباح، وبذلك كانوا قد قربوا من رسول الله (ص) فهابوا لقربهم منه وخطرهم عليه، أن يبعث إليهم رسول الله (ص) من يغزوهم.

كما انّ رسول الله (ص) خافهم بسبب قربهم أن يصيبوا من أطرافه شيئاً، فهمّ بالمسير إليهم، فبينا هو على ذلك، إذ جاءت أشجع ورئيسها مسعود بن رخيلة وهم سبعمائة فنزلوا شعب سلع، عندها دعى رسول الله (ص) أُسيد بن حضير وقال له: اذهب أنت ونفر من

أصحابك حتى تنظر ما أقدم أشجع؟

فخرج اسيد ومعه ثلاثة من أصحابه، فوقف عليهم وقال: ما أقدمكم؟

فقام إليه رئيس أشجع مسعود بن رخيلة فسلّم على اسيد وعلى أصحابه وقال: جئنا لنوادع محمداً، فرجع اسيد إلى رسول الله (ص) وأخبره بالخبر.

فقال رسول الله (ص): خاف القوم أن أغزوهم فأرادوا الصلح بيني وبينهم، ثم بعث إليهم بعشرة أحمال تمر فقدّمها أمامه ثم قال: (نعم الشيء الهدية أمام الحاجة) ثم أتاهم (ص) فقال: يا معشر أشجع ما أقدمكم؟

قالوا: قربت دارنا منك، وليس في قومنا أقلّ عدداً منّا، فضقنا بحربك لقرب دارنا منك، وضقنا بحرب قومنا لقلّتنا فيهم، فجئنا لنوادعك.

فقبل النبي (ص) ذلك منهم ووادعهم فأقاموا يومهم ثم رجعوا إلى بلادهم، وفيهم نزلت هذه الآية: (إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ) ([١٣٢]).

غزوة دومة الجندل

و(دومة الجندل) مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة أو ست عشرة.

وكان سببها أنه بلغه (ص) أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مرّ بهم، من المسافرين والتجّار، وانهم يريدون الإغارة على المدينة، فخرج لخمس ليال بقين من ربيع سنة خمس للهجرة النبوية المباركة، وذلك في ألف من أصحابه، فكان يسير الليل ويكمن النهار، حتى إذا دنا من دومة الجندل بلغ أهلها خبره فتفرّقوا من فورهم.

فنزل (ص) بساحتهم فلم يلق بها أحداً، فأقام بها أياماً، وبث السرايا وفرقها، فرجعوا بعد يوم ولم يصادفوا منهم أحداً.

ثم عاد رسول الله (ص) إلى المدينة ولم يلق كيداً. وكان ذلك تمهيداً لما حدث بعد ذلك من فتح الشام.

---

[١٣٢] – النساء: ٩٠.

وكانت في شوال سنة خمس من الهجرة النبوية المباركة.

وذلك ان نفراً من اليهود منهم: سلام بن أبي الحقيق النضيريّ، وحييّ بن أخطب، وكنانة بن الربيع، وهوذة بن قيس الوالبي، وأبو عمارة الوالبي في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فقالوا لهم: انّ محمداً قد وترنا ووتركم، وأجلانا من المدينة من ديارنا وأموالنا، وأجلا بني عمنا بني قينقاع، فسيروا في الأرض وأجمعوا حلفاءكم وغيرهم حتى نسير إليهم، فإنه قد بقي من قومنا بيثرب سبعمائة مقاتل وهم بنو قريظة وبينهم وبين محمد عهد وميثاق، وإنّا نحملهم على نقض العهد بينهم وبين محمد ويكونون معنا عليهم، فتأتونه أنتم من فوق، وهم من أسفل، وكان موضع بني قريظة من المدينة على قدر ميلين وهو الموضع الذي يسمىّ ببئر بني المطّلب، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

فقالت لهم قريش: يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وانكم أولى بالحق منه.

فأنزل الله تعالى فيهم ـ على رواية ـ: (أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً) ([133]) إلى قوله: (وَكَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً) ([134]).

فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله (ص).

وجاءهم أبو سفيان فقال لهم: قد مكّنكم الله من عدوّكم، هذه اليهود تقاتل معكم ولن تنفك عنكم حتى نأتي على جميعهم، أو نستأصلهم، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له.

ثم خرج ذلك النفر من اليهود حتى أتوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله (ص) وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأنّ قريشاً قد تابعوهم على ذلك.

---

[133] – النساء: ٥١.

[134] – النساء: ٥٥.

فخرجت قريش وقائدهم إذ ذاك أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بني قرارة، والحارث بن عوف في بني مرة، ومسعر بن دخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع، وتوجّهوا في عشرة آلاف، وقيل: في ثمانية عشر ألف رجل، نحو المدينة.

المشورة تهدي إلى الظفر

فلما سمع بهم رسول الله (ص) استشار أصحابه، فكان رأيهم على المقام في المدينة وحرب القوم إن جاءوا إليهم على أنقابها.

فأشار سلمان الفارسي بالخندق واستحسنه القوم، ونزل جبرئيل على رسول الله (ص) بصواب رأي سلمان.

فخرج رسول الله (ص) فحدّد حفر الخندق من ناحية أُحد إلى راتج، حيث كان سائر أنحاء المدينة مشبك بالنخيل والبنيان، وخطّ موضع الحفر بخط على الأرض، فضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله (ص) ترغيباً للمسلمين في الأجر فحفر بنفسه في موضع المهاجرين، وعلي (ع) ينقل التراب من الحفرة، حتى عرق رسول الله (ص) وعيي وقال: (لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم اغفر للأنصار والمهاجرين).

فقالوا مجيبين له:

(نحن الذين بايعوا محمدا***على الجهاد ما بقينا أبدا)

وكان سلمان رجلاً قويّاً، فقال المهاجرون: سلمان منّا، وقالت الأنصار: سلمان منّا، فقال النبي (ص): (سلمان منّا أهل البيت).

وكان لكل عشرة منهم أربعون ذراعاً يحفرونها، فبدأ رسول الله (ص) فعمل فيه وعمل فيه المسلمون، فدأب فيه فدأبوا.

وأبطأ عن رسول الله (ص) وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يورّون بالضعف عن العمل، ويتسلّلون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله (ص) ولا إذن.

وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته نائبة من الحاجة التي لابدّ منها ذكرها لرسول الله (ص) واستأذنه باللحوق بحاجته فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبةً في الخير واحتساباً له، فأنزل الله في أُولئك المؤمنين: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ

وَرَسُولِهِ وَإِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ) ([١٣٥]).

ثم قال تعالى في المنافقين الذين كانوا يتسلّلون من العمل ويذهبون بغير إذن: (لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً) ([١٣٦]).

وكان الذي أشار بالخندق سلمان فقال: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، ولم تكن تعرفه العرب قبل ذلك، ولذا قال المشركون لما رأوا الخندق: انها مكيدة فارسية ما كانت العرب تكيدها.

النبي (ص) يجوع ليَشبع الآخرون

قال علي (ع): كنا مع النبي (ص) في حفر الخندق إذ جاءته فاطمة(ع) ومعها كسرة من خبز، فدفعتها إلى النبي (ص) فقال: يا فاطمة ما هذه؟

قالت (ص): قرص خَبَزته للحسن والحسين (عليه السلام) جئتك منه بهذه الكسرة.

فقال النبي (ص): أما إنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث.

بوارق الفتح

وبينا المهاجرون والأنصار يحفرون إذ عرض لهم جبل لم تعمل فيه المعاول، فبعثوا جابر بن عبدالله الأنصاري إلى رسول الله (ص) يعلمه بذلك.

قال جابر: فجئت إلى رسول الله (ص) وقد شدّ على بطنه حجر المجاعة، وأخبرته بالخبر.

فأقبل (ص) ودعا بماء في اناء، فشرب منه ثم مجّ ذلك الماء في فيه، ثم صبه على ذلك الحجر، ثم أخذ معولاً فقال: بسم الله، فضرب ضربة، فبرقت برقة، فنظرنا فيها إلى قصور الشام، ثم ضرب أُخرى فبرقت برقة فنظرنا فيها إلى قصور المدائن، ثم ضرب أُخرى فبرقت برقة أُخرى فنظرنا فيها إلى قصور اليمن.

فقال رسول الله (ص): أما انه سيفتح الله عليكم هذه المواطن التي برقت فيها البرقة، ثم انهال علينا الجبل كما ينهال الرمل.

---

[١٣٥] – النور: ٦٢.

[١٣٦] – النور: ٦٣.

قال جابر: فلما رأيت رسول الله (ص) قد شدّ على بطنه حجراً علمتُ بأنه جائع، فقلت له: يا رسول الله هل لك في الغداء؟

قال (ص): ما عندك يا جابر؟

قلت: عناق وصاع من شعير.

قال (ص) تقدّم وأصلح ما عندك.

قال جابر: فجئتُ إلى أهلي فأمرتها فطحنت الشعير، وذبحت العنز وسلختها، وأمرتها أن تخبز وتطبخ وتشوّي، فلما فرغت من ذلك، جئت إلى رسول الله (ص) فقلت: بأبي وأُمّي أنت يا رسول الله قد فرغنا، فاحضر مع من أحببت.

فقام رسول الله (ص) إلى شفير الخندق ثم قال: يا معاشر المهاجرين والأنصار أجيبوا جابراً، وكان في الخندق سبعمائة رجل، فخرجوا كلّهم! ثم لم يمرّ (ص) بأحد من المهاجرين والأنصار إلا قال: أجيبوا جابراً!

قال جابر:فأسرعت إلى البيت وقلت لأهلي:قد والله أتاك رسول الله (ص) بما لاقبل لك به.

فقالت: هل أنت أعلمته بما عندنا؟

قال: نعم.

قالت: هو أعلم بما أتى.

قال جابر: فدخل رسول الله (ص) فنظر في القدر، ثم نظر في التنور، ثم دعى بصحفة فثرد فيها وغرف، فقال: يا جابر أدخل عليّ عشرة، فأدخلت عشرة، فأكلوا حتى نهلوا، وما يرى في القصعة إلا آثار أصابعهم.

ثم قال: يا جابر عليّ بالذراع، فأتيته بالذراع فأكلوه.

ثم قال: أدخل عليّ عشرة، فدخلوا فأكلوا حتى نهلوا وما يرى في القصعة إلا آثار أصابعهم.

ثم قال: يا جابر عليّ بالذراع، فأتيته فأكلوا وخرجوا.

ثم قال: أدخل عليّ عشرة، فأدخلتهم فأكلوا حتى نهلوا ولم ير في القصعة إلا آثار

أصابعهم.

ثم قال: يا جابر عليّ بالذراع، فأتيته بالذراع فتعجّبت وقلت: يا رسول الله كم للشاة من ذراع؟

قال (ص): ذراعان.

قلت: والذي بعثك بالحقّ نبيّاً لقد أتيتك بثلاثة.

فقال: أما لو سكتّ يا جابر لأكلوا كلهم من الذراع.

قال جابر: فأقبلت أُدخل عليه عشرة عشرة فيأكلون حتى أكلوا كلهم، وبقي والله لنا من ذلك الطعام ما عشنا به أياماً.

المشركون ومحاصرة المدينة

قال: وحفر رسول الله (ص) الخندق وأتمّه قبل قدوم قريش بثلاثة أيام، وقد طال حفره مايقارب من شهر واحد، وذلك بعد أن جعل له ثمانية أبواب، وجعل على كل باب رجلاً من المهاجرين ورجلاً من الأنصار مع جماعة يحفظونه.

ثم ضرب (ص) عسكره هناك وكانوا ثلاثة آلاف، فجعل الخندق أمامه، وجعل ظهره إلى سلع وهو جبل بالمدينة، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام، وذلك بعد أن استعمل ابن أُمّ مكتوم على المدينة.

وقدمت الأحزاب وعلى رأسهم قريش ومعهم حييّ بن أخطب، فلما نزلوا العقيق جاء حييّ بن أخطب إلى بني قريظة في جوف الليل، وكانوا في حصنهم وقد تمسّكوا بما عاهدوا عليه رسول الله (ص) فدقّ باب الحصن، فسمعه كعب بن أسد صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان هو بنفسه الذي وادع رسول الله (ص) على قومه وعاقده على ذلك، فعرف انه حييّ بن أخطب، فأغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له.

فناداه حييّ: ويحك يا كعب افتح لي.

قال: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم، واني قد عاهدت محمداً، وانك لست بناقض مابيني وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً.

قال: ويحك افتح لي أُكلّمك.

فقال: ما أنا بفاعل.

قال حييّ، وقد فكّر في كلام يثير به كعب: والله ما أغلقت الباب دوني إلا عن جشيشتك التي في التنور تخاف أن آكل منها.

فأحفظ الرجل ففتح له وقال: لعنك الله لقد دخلت عليّ من باب دقيق.

فقال حييّ: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نَقَمى إلى جانب أُحد قد عاهدوني وعاقدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

قال كعب: جئتني والله بذلّ الدهر وبجهام قد هرق ماؤه، فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء، ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً.

فلم يزل حيي يفتله في الذروة والغارب ويقول له: بأن محمداً لا يفلت من هذا الجمع أبداً، وان فاتك هذا الوقت لاتدرك مثله أبداً، حتى سمع له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك.

وبهذا تمكّن حيي من اقناع كعب، فلما اقتنع كعب بذلك أرسل إلى كل من كان في الحصن من رؤساء اليهود وقال لهم: ما ترون؟

قالوا: أنت سيّدنا وصاحب عهدنا فإن نقضت نقضنا معك، وإن أقمت أو خرجت كنا معك.

فقال لهم (ابن باطا) وكان أحد رؤسائهم: انه قرأ في التوراة وصف هذا النبي وانه لو ناوته الجبال الرواسي لغلبها، فلا يهولنّه هؤلاء وجمعهم، وحذرهم مغبّة نقضهم العهد معه.

وهنا انبرى حيي وقال: ليس هذا ذاك، ذلك النبي من بني إسرائيل، وهذا من العرب، ومازال يقلّبهم عن رأيهم حتى أجابوه، ثم طلب حييّ الكتاب الذي كان بينهم وبين رسول الله (ص) فمزّقه وقال: قد وقع الأمر فتجهّزوا للقتال، فنقضوا عهدهم وعزموا على القتال.

وجاء حييّ بن أخطب إلى أبي سفيان والأحزاب فأخبرهم بنقض بني قريظة عهدهم ففرحوا بذلك.

بني قريظة يعلنون خيانتهم

ثم بدأ بنو قريظة يظهرون خيانتهم ونقضهم للعهد، وحاولوا أن يغيروا على المدينة من منافذها المؤدية إلى مساكن النساء والأطفال فبعثوا أحدهم ليطّلع على المنافذ ويخبرهم بها.

وفي أثناء استطلاعه بصرت به صفية بنت عبدالمطلب وهي مع جماعة من النسوة والأطفال وفيهم حسان بن ثابت كانوا في حصن فارع حصن حسّان بن ثابت، فقالت لحسّان: لو نزلت إلى هذا اليهودي لتقتله، فإنه يريد أن يدلّ بني قريظة على المنافذ المؤدية إلى الحصن.

فقال حسّان: يا بنت عبدالمطلب لقد علمت ما أنا بصاحب هذا.

وهنا تحزّمت صفية ثم نزلت وأخذت عموداً وقتلته به، ثم عادت إلى الحصن وقالت لحسّان: الآن فاخرج واسلبه.

أجابها حسّان: لاحاجة لي في سلبه.

النبي (ص) وأخبار بني قريظة

ولما نقض بنو قريظة عهدهم، انتهى خبرهم إلى رسول الله (ص) فبعث إليهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبدالله بن رواحة وخوّات بن جُبير وقال: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ولا تفتّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله (ص) وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولاعقد.

فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلاً فيه حدة.

فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة.

ثم أقبل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ومن معهما إلى رسول الله (ص) فسلموا عليه ثم قالوا: عضل والقارة. أي: كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع.

فقال رسول الله (ص): الله أكبر أبشروا بنصر الله يا معشر المسلمين، وكان (ص) يبعث الحرس إلى المدينة خوفاً على الذراري من بني قريظة.

لكن عظم على المسلمين البلاء واشتدّ الخوف عندما أتاهم عدوّهم من فوقهم ومن

أسفل منهم وحاصروهم حول الخندق حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال بعضهم: قد كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب لقضاء حاجته. وأنزل الله تعالى: (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً) ([١٣٧]).

وقال رجال معه: (يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا).

وقال بعضهم: يا رسول الله ان بيوتنا عورة من العدو، فائذن لنا فنرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة، فأنزل الله سبحانه: (وما هي بعورة إن يريدوا إلاّ فراراً).

مفاوضات عسكرية

فلمّا اشتدّ البلاء على المسلمين من كثرة الأحزاب وطول محاصرتهم، بعث رسول الله (ص) إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان، ففاوضهما بأن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا بمن معهما عنه وعن أصحابه، وذلك ليفتّ في عضد المشركين، فجرى بينه وبينهما مذاكرة الصلح، ولم تقم الشهادة ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة في ذلك.

فبعث رسول الله إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لابدّ لنا من العمل به فافعله، أم شيئاً تصنعه لنا؟

قال (ص): بل شيء أصنعه لكم، وما أصنع ذلك إلا لأنّي رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وجاؤوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرمّا.

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ولا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا من ثمرنا تمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا به نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم بحكمه.

فقال رسول الله (ص): الآن قد عرفت ما عندكم، فكونوا على ما أنتم عليه، فإن الله

---

[١٣٧] – الأحزاب: ١٢.

تعالى لن يخذل نبيّه ولن يسلمه حتى ينجز له ما وعده.

وكان هذا بالإضافة إلى الفتّ في أعضاد المشركين، واستخبار معنويات المسلمين، تعليماً من الرسول (ص) في استشارة الحكام أهل الخبرة أيضاً.

بدء القتال

ولما علم رسول الله (ص) عزم أصحابه وعلوّ معنوياتهم رغم طول المحاصرة حيث دامت بضعاً وعشرين ليلة ولم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى، قام (ص) يشجّع أُولئك الذين أصابهم الضعف والوهن خوفاً من المشركين، ويحرّضهم على جهادهم، ويعدهم النصر من الله تعالى، ويحثهم بذلك على المجابهة إذا نشب القتال.

وفي هذه الأثناء انتدبت فوارس من قريش، وعلى رأسهم فارس يليل: عمرو بن عبدود العامري، خرج مُعلماً ليرى مشهده، وكان يعدّ بألف فارس، فأقبلوا على خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إنّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع، وكان عمرو العامري هذا ومن معه أول من عبر الخندق.

فخرج علي بن أبي طالب (ع) في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها ومنعوا من عبور الآخرين، وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم.

وكان عمرو بن عبدود ينادي تارة: ألا رجل يبارزني؟

ويصرخ أُخرى: أين جنّتكم التي تزعمون انّ من قتل منكم دخلها؟ ويرتجز ثالثة ويقول:

ولقد بُححت من النداء***بجمعكم هل من مبارز؟

ووقفت إذ جبن الشجاع***مواقف البطل المناجز

اني كذلك لم أزل***متسرّعاً نحو الهزاهز

إن الشجاعة في الفتى***والجود من خير الغرائز

الايمان كله مع الشرك كله

وفي كل مرة يطلب عمرو المبارزة، كان رسول الله (ص) يقول لأصحابه: أيّكم يبرز إلى عمرو؟ وأضمن له على الله الجنّة؟

وفي كل مرة يقوم علي بن أبي طالب (ع) ويقول: أنا له يا رسول الله، فيأمره بالجلوس انتظاراً منه ليتحرّك غيره، والمسلمون ناكسوا رؤوسهم كأنّ على رؤوسهم الطير، لمكان عمرو بن عبدود.

فلما طال نداء عمرو بالبراز وتتابع قيام علي (ع) قال له رسول الله (ص): يا علي هذا عمرو بن عبدود فارس يليل.

قال: وأنا علي بن أبي طالب.

فقال (ص): إذن أُدن منّي يا علي، فدنى منه، فنزع (ص) عمامته من رأسه وعمّمه بها، وأعطاه سيفه ذاالفقار وقال له: (اذهب وقاتل بهذا).

ثم رفع (ص) يديه نحو السماء وقال: (لاللهمّ انّك أخذت منّي عبيدة بن الحارث يوم بدر، وحمزة بن عبدالمطلب يوم أُحُد، وهذا أخي علي بن أبي طالب، ربّ لاتذرني فرداً وأنت خير الوارثين، اللهمّ أعنه، اللهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته).

فلما برز علي (ع) قال (ص): (برز الايمان كله إلى الشرك كله) ([١٣٨]).

ولما برز علي بن أبي طالب (ع) إلى عمرو، برز وهو يهرول في مشيته ويرتجز ويقول مجيباً لعمرو:

لاتعجلنّ فقد أتاك***مجيب صوتك غير عاجز

ذو نيّة وبصيرة***والصدق منجى كلّ فائز

اني لأرجو أن أُقيم***عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى***ذكرها عند الهزاهز

على أعتاب المصاولة

ولما اقترب علي (ع) من عمرو، قال له عمرو: من أنت؟

قال: أنا علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله (ص) وختنه.

قال: والله انّ أباك كان لي صديقاً، واني أكره أن أقتلك، ما أمن ابن عمّك حين بعثك

[١٣٨] – راجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ج ١٣ ص ٢٦١ ط دار إحياء التراث العربي.

إليّ أن اختطفك برمحي هذا، فأتركك بين السماء والأرض لا حيّاً ولا ميّتاً؟

فأجابه علي (ع) قائلاً: قد علم ابن عمّي انك إن قتلتني دخلتُ الجنّة وأنت في النار، وإن قتلتك فأنت في النار وأنا في الجنّة.

فقال عمرو: كلتاهما لك يا علي، تلك إذن قسمةٌ ضيزى.

فقال علي (ع): دع هذا يا عمرو، اني سمعتك تقول: لا يعرض عليّ أحد في الحرب ثلاث خصال إلا أجبته إلى واحدة منها، وأنا أعرض عليك ثلاث خصال فأجبني إلى واحدة.

قال عمرو: هات يا علي.

قال (ع): تشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله.

قال: نحّ عني هذا، فأين ما أنفقت فيكم مالاً لبداً؟ وكان قد أنفق مالاً في الصدّ عن سبيل الله فأنزل الله فيه: (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً) ([١٣٩]).

قال (ع): فالثانية: أن ترجع من حيث جئت وترد هذا الجيش عن رسول الله (ص)، فإن يك صادقاً فأنتم أعلى به عيناً، وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره.

قال: إذن تتحدّث نساء قريش بأني جبنت ورجعت.

قال (ع): فالثالثة: أن تنزل إليّ وتقاتلني، فإني راجل وأنت راكب.

فنزل عمرو عن فرسه وعرقبه وقال: هذه خصلة ما كنت أظن انّ أحداً من العرب يسومني عليها، واني لأكره أن أقتل رجلاً كريماً مثلك، وقد كان أبوك لي صديقاً.

قال علي (ع): لكني أُحبّ أن أقتلك.

فغضب عندها عمرو وبدأ بالقتال فضرب علياً (ع) بالسيف على رأسه، فاتقاه بالدرقة فقطعها، وثبت السيف على رأسه (ع).

ثم بدره علي (ع) فضربه على ساقيه فقطعهما جميعاً، وارتفعت بينهما عجاجة، وكبّر علي (ع).

فانكشف من كان مع عمرو حتى عبروا الخندق منهزمين، فوقع نوفل بن عبدالعزّى في الخندق، فطعنه علي (ع) في ترقوته فمات في الخندق.

---

[١٣٩] – البلد: ٦.

ولما انكشفت العجاجة نظروا فإذا بعلي (ع) على صدر عمرو قد أخذ بلحيته يريد أن يذبحه، فلمّا همّ أن يذبحه تركه وقام فخطا خطوات ثم رجع إليه وأخذ بلحيته ثانية ليذبحه وهو يكبّر الله ويمجّده، فقال له عمرو: يا علي إذا قتلتني فلا تسلبني حلّتي.

فقال (ع): هي أهون عليّ من ذلك، فذبحه وتركه، ثم أخذ رأسه وأقبل نحو رسول الله (ص) والدماء تسيل على رأس علي (ع) من ضربة عمرو، وسيفه يقطر منه الدم، وهو يقول والرأس بيده:

أنا علي وابن عبدالمطلب***الموت خير للفتى من الهرب

يقول ذلك وهو يخطر في مشيته.

فقال بعض: ألا ترى يا رسول الله إلى عليّ كيف يتبختر في مشيه؟

فقال رسول الله (ص): انها لمشية لا يمقتها الله في هذا المقام.

ثم استقبله رسول الله (ص) ومسح الغبار عن عينيه وقال له: أبشر يا علي فلو وزن اليوم عملك بعمل أُمّة محمد لرجح عملك بعملهم، وذاك انه لم يبق بيت من المشركين إلاّ وقد دخله ذلّ بقتل عمرو، ولم يبق بيت من المسلمين إلاّ وقد دخله عزّ بقتل عمرو.

ثم قال (ص): ضربة علي (ع) يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين.

وسُمع منادياً ينادي ـ ولا يرى شخصه ـ يقول:

قتل علي عمرا***قصم علي ظهراً

ابرم علي أمراً

ووقعت الهزيمة بالمشركين وتفرّقت الأحزاب خائفين مرعوبين.

فقال رسول الله (ص): الآن نغزوهم ولا يغزونا، فكان كما قال (ص) فلم يغزهم قريش بعد ذلك، وكان هو يغزوهم حتى فتح الله عليهم مكّة.

ولما سألوا علياً (ع) عن سبب قيامه عن صدر عمرو ثم العود إليه ثانية، وعن تركه سلبه؟

قال (ع): ان عمرواً تجاسر عليه مما أثار غضبه، فقام يخطو خطوات يطفىء بها غضبه ليكون قتله إيّاه خالصاً لوجه الله تعالى لا يشوبه شيء من التشفي والإنتقام لنفسه، كما انه ترك سلبه، لأن عمرواً قد سأله ذلك وطلب منه أن لايسلبه بعد قتله.

ضربتان: أعزّ وأشأم

روى الأودي قال: سمعت ابن عياش يقول: لقد ضَرب عليّ (ع) ضربة ما كان في الإسلام ضربة أعزّ منها، يعني بها ضربة عمرو بن عبدود العامري، ولقد ضُرب علي (ع) ضربة ما كان في الإسلام أشأم منها، يعني بها ضربة ابن ملجم المرادي، وفي قتل عمرو بن عبدود يقول حسّان بن ثابت:

أمسى الفتى عمرو بن عبد يبتغي***بجنوب يثرب غارة لم تنظر
ولقد وجدت سيوفنا مشهورة***ولقد وجدت جيادنا لم تقصر
ولقد رأيت غداة بدر عصبة***ضربوك ضرباً غير ضرب المخسر
أصبحت لا تدعى ليوم عظيمة***يا عمرو أو لجسيم أمر منكر
فسمعه أحد بني عامر فأجابه وهو يرد عليه افتخاره بالأنصار قائلاً:
كذبتم وبيت الله لم تقتلوننا***ولكن بسيف الهاشميين فافخروا
بسيف ابن عبدالله أحمد في الوغا***بكف عليّ نلتمُ ذاك فاقصروا
فلم تقتلوا عمرو بن عبد ببأسكم***ولكنه الكفو الهزبر الغضنفر
عليّ الذي في الفخر طال بناؤه***ولا تكثتروا الدعوى علينا فتحقروا

مع ابنة عبدود

وروي انه لما قتل علي (ع) عمرو بن عبدودّ نعي إلى أُخته عمرة بنت عبدود، فلما جاءت إليه ورأته على حلّته لم يسلبه قاتله، قالت: من ذا الذي اجترأ عليه؟

قالوا لها: علي بن أبي طالب.

قالت: لم يعد موته إلا على يد كفو كريم، لا رقأت دمعتي ان هرقتها عليه، قتل الأبطال، وبارز الأقران، وكانت منيته على يد كفو كريم من قومه، ما سمعت بأفخر من هذا يا بني عامر، ثم أنشأت تقول:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله***لكنتُ أبكي عليه آخر الأبد
لكن قاتل عمرو لا يعاب به***من كان يدعى قديماً بيضة البلد

ثم قالت: والله لا ثأرت قريش بأخي ما حنّت النيب . والنيب جمع ناب وهي المسنّة من

النوق ـ كناية عن انها لاتستطيع ذلك أبداً.

في الحرب ومع المشركين فقط

كان نعيم بن مسعود الأشجعي ممن يجيد فنّ الشغب والفتنة، فأتى رسول الله (ص) في جوف الليل وكان قد أسلم قبل قدوم قريش بثلاثة أيام، فقال: يا رسول الله اني قد آمنتُ بالله وصدقتك، وكتمتُ ايماني عن الكفرة، فإن أمرتني أن آتيك وأنصرك بنفسي فعلت، وإن أمرتني ان أُخذّل بين اليهود وبين قريش فعلت حتى لايخرجوا من حصنهم.

فقال رسول الله (ص): خذّل بين اليهود وبين قريش، فإنه أوقع عندي.

فجاء إلى أبي سفيان وقال له: انك تعرف مودّتي لكم ونصحي، وقد بلغني انّ محمداً قد وافق اليهود على أن يأخذوا رهائن من أشرافكم ليسلّموهم إلى محمد يضرب أعناقهم، ثم يدخلوا بين عسكركم ويميلوا عليكم، ووعدهم إذا فعلوا ذلك أن يردّ عليهم جناحهم الذي قطعه بني النضير وقينقاع، فلا أرى أن تدعوهم يدخلوا عسكركم حتى تأخذوا منهم رهناً تبعثوا بهم إلى مكّة، فتأمنوا مكرهم وغدرهم.

فقال له أبو سفيان: وفّقك الله وأحسن جزاءك، مثلك من أهدى النصائح.

ثم جاء نعيم من فوره ذلك إلى بني قريظة وقال لكعب وكان نديماً له في الجاهلية: يا كعب انّك تعلم مودّتي لكم ونصحي، وقد بلغني انّ أبا سفيان قال: نخرج هؤلاء اليهود فنضعهم في نحر محمّد، فإن ظفروا كان الفخر لنا، وإن خسروا كانوا هؤلاء مقاديم الحرب، فلا أرى لكم أن تدعوهم يدخلوا عسكركم حتى تأخذوا منهم عشرة من أشرافهم يكونون في حصنكم، فإنهم إن لم يظفروا بمحمد رجعوا إلى مكة وغزاكم محمد فقتلكم، لكن إن أخذتم رهائن منهم، لم يذهبوا حتّى يردّوا عليكم عهدكم الذي جعلتموه بينكم وبين محمد.

فقال له كعب: أحسنت وأبلغت في النصيحة لانخرج من حصننا حتى نأخذ منهم رهناً يكونون في حصننا.

وكان كذلك، فإنهم طلبوا رهناً حينما طلب منهم أبوسفيان أن يبدأوا القتال، فقال أبوسفيان: صدق نعيم، فاختلفت كلمتهم.

الأحزاب ينهزمون

لما قَتل علي (ع) عمرو بن عبدود دخل الوهن والذلّ معسكر الأحزاب، واضطربوا أشدّ اضطراب، فلما جنّ اللّيل قام رسول الله (ص) على التلّ الذي عليه مسجد الفتح، وكانت ليلة ظلماء قرّة فقال: من يذهب فيأتينا بخبرهم وله الجنّة؟ أعادها فلم يقم أحد، ثم قال: من هذا؟ وكان حذيفة قريباً منه، فقال: أنا حذيفة يا رسول الله.

فقال: اقترب يا حذيفة أما تسمع كلامي؟

فقام حذيفة وهو يقول: القرّ والضرّ جعلني الله فداك منعاني أن أُجيبك.

فقال رسول الله (ص): انطلق حتى تسمع كلامهم وتأتيني بخبرهم.

فقال حذيفة: نعم يا رسول الله، ثم قام فأخذ سيفه وقوسه وترسه، وليس به ضرّ ولا قرّ واتّجه نحوهم.

فقال له رسول الله (ص) بعد أن دعا له: يا حذيفة لاتحدث شيئاً حتى تأتيني، فلما ذهب حذيفة رفع رسول الله (ص) يديه إلى السماء ودعا قائلاً: (يا صريخ المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرّين، ويا مغيث المهمومين، اكشف همّي وغمّي وكربي، فقد ترى حالي وحال أصحابي) وما أن تمّ دعاؤه حتى نزل جبرئيل وهو يقول: يا رسول الله انّ الله عزّ ذكره قد سمع مقالتك ودعاءك وقد أجابك وكفاك هول عدوّك، فجثا رسول الله (ص) على ركبتيه، وبسط يديه، وأرسل عينيه، ثم قال: (شكراً شكراً، كما رحمتني ورحمت أصحابي).

ثم قال: ان الله عزّوجل قد بعث عليهم ريحاً من السماء الدنيا فيها حصى وأرسل عليهم ريحاً من السماء الرابعة فيها جندل.

حذيفة ودعاء الرسول (ص)

قال حذيفة: خرجت فلما وصلت إليهم، أقبل جند الله الأول ريح فيها حصى، فما تركت لهم ناراً إلاّ أذرّتها، ولا خباءاً إلاّ طرحته، ولا رمحاً إلا ألقته، حتى جعلوا يتترّسون من الحصى.

فجلست بين رجلين من المشركين، فقام أبو سفيان وقال: إن كنّا نقاتل أهل الأرض فنحن بالقدرة عليه، وإن كنّا نقاتل أهل السماء كما يقول محمد فلا طاقة لنا بأهل السماء، انظروا بينكم لا يكون لمحمد عين بيننا، فليسأل بعضكم بعضاً.

قال حذيفة: فبادرتُ إلى الذي عن يميني وقلت له: من أنت؟

قال معاوية.

وقلت للذي عن يساري: من أنت؟

فقال: عمرو بن سهيل، ولم يسألاني عن اسمي.

ثم أقبل جند الله الأعظم. ريح فيها جندل، فقام أبو سفيان إلى راحلته، ثم صاح في قريش: النجاء النجاء، ولما أراد أن يركب راحلته أمكنني قتله، فلما هممت بذلك تذكرت قول رسول الله (ص): (لا تحدثن حدثاً حتى ترجع إليّ) فكففت ورجعت بعد أن انهزم المشركون وذهب الأحزاب.

فأخبرتُ رسول الله (ص) الخبر وقد طلع الفجر، فتهيّأ وتهيّئنا معه للصلاة، فصلّى بنا الفجر ثم نادى مناديه: لا يبرحنّ أحد مكانه إلى أن تطلع الشمس، فلما طلعت الشمس انصرفنا مع رسول الله (ص) إلى داخل المدينة وهو يقول على رواية: (لا إله إلاّ الله وحده وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فله الملك وله الحمد، يحيي ويميت، ويميت ويحيي، وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير).

القرآن وغزوة الأحزاب

ثم انّ الله تعالى أوحى إلى نبيّه (ص) سورة الأحزاب يذكّر المسلمين فيها بما أصابهم ذلك اليوم من ضرّ، وبما منّ عليهم من الفتح وبما أنزل عليهم من النصر، اضافة إلى ما في تسمية السورة بالأحزاب من اشارة إلى أهمية الأمر وعظم الواقعة حيث يقول تعالى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً، إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا، هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً) ([140]) إلى قوله تعالى: (وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَكانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً) ([141]).

---

[140] – الأحزاء: ٩ – ١١.

[141] – الأحزاب: ٢٥.

ثمّ بشّرهم بفتح حصون اليهود حيث يقول تعالى: (وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً) ([١٤٢]).

غزوة بني قريظة

لما انصرف رسول الله (ص) من الخندق ودخل المدينة واللواء معقود، أراد أن يغتسل من الغبار، فناداه جبرئيل: عذيرك من محارب، والله ما وضعت الملائكة لامتها، فكيف تضع لامتك؟ ان الله يأمرك أن لا تصلّي العصر إلا ببني قريظة، فإني متقدّمك ومزلزل بهم حصنهم.

فخرج رسول الله (ص) وقال: ادعوا لي علياً، فجاء علي (ع) فقال له: ناد في الناس أن لايصلينّ أحد العصر إلا في بني قريظة، فنادى فيهم، فخرج الناس، فبادروا إلى بني قريظة، وخرج رسول الله (ص) وعلي (ع) بين يديه مع الراية العظمى في ثلاثة آلاف رجل وثلاثين فرساً، وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة.

وكان حييّ بن أخطب لما انهزم الأحزاب جاء فدخل حصن بني قريظة، فجاء علي (ع) فأحاط بحصنهم، فأشرف عليهم كعب بن أسد من الحصن يشتمهم ويشتم نبيّهم.

فأقبل رسول الله (ص) وأنزل العسكر حول حصنهم فحاصرهم ثلاثة أيام، فنزل بعدها أحدهم إليه وقال: يا محمد تعطينا ما أعطيت إخواننا من بني النضير؟

فقال: لا، أو تنزلون على حكمي.

فرجع، واستمر الحصار خمساً وعشرين ليلة.

فلما اشتد عليهم ذلك وأيقنوا انّ رسول الله (ص) غير منصرف عنهم، قام سيّدهم كعب بن أسد وعرض عليهم ثلاث خصال: اما الإسلام، وإما قتل ذراريهم ونسائهم ثم القتال حتى يموتوا، وإما تبييت النبي (ص) وأصحابه ليلة السبت، فإن المسلمين قد أمنوا منهم.

فأبوا كل ذلك، فأرسلوا إلى رسول الله (ص) أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبدالمنذر أخا

---

[١٤٢] – الأحزاب: ٢٦ – ٢٧.

بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس، ليستشيروه في أمرهم، فأرسله إليهم.

زلة أبي لبابة وتوبته

فلما جاء أبو لبابة إلى بني قريظة أحاطوا به وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟

قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنتُ الله ورسوله.

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه فلم يأت رسول الله (ص) حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده وقال: لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعاهد الله أن لا يطأ بني قريظة أبداً، ولا يراه الله في بلد خان الله ورسوله فيه أبداً.

فلما سمع رسول الله (ص) خبره وكان قد استبطأه قال: أما لو جاءني لاستغفرتُ له، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

فنزلت توبة أبي لبابة على رسول الله (ص)، فتولّى رسول الله (ص) إطلاقه بيده الكريمة، فنزلت بنو قريظة على حكم رسول الله (ص).

حكمية سعد بن معاذ

فلما نزلت بنو قريظة على حكم رسول الله (ص) قالت الأوس: يا رسول الله قد فعلت في بني قينقاع ما قد فعلت وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا.

فقال رسول الله (ص): ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟

قالوا: بلى فمن هو؟

قال (ص): فذلك سعد بن معاذ.

قالوا: قد رضينا بحكمه.

وكان رسول الله (ص) قد جعل سعد بن معاذ لما به من الجراح الذي أصابه من وقعة الأحزاب في خيمة في المسجد تسكنها رفيدة امرأة صالحة تقوم على المرضى وتداوي الجرحى تحتسب بذلك الأجر، ليعوده من قريب، فأرسل رسول الله (ص) إلى سعد ليؤتى به ليحكم في بني قريظة، فأُتي به في محفّة وهو سرير يحمل عليه المريض، وأحاط به قومه وهم يقولون: يا

أباعمرو، أحسن في مواليك، فإنما ولاّك رسول الله (ص) ذلك لتحسن فيهم.

فقال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فأحسّ قومه من كلامه هذا، انه يريد أن يحكم فيهم بما حكم به اليهود أنفسهم: من الحكم بقتل المحاربين وسبي ذراريهم ونسائهم ومصادرة أموالهم إذا كان الفتح لهم، وبما عاهد اليهود أنفسهم رسول الله (ص): من انهم لو نقضوا عهدهم معه كان له الحق في قتلهم ومصادرة أموالهم وسبي ذراريهم ونسائهم، ولذلك قالوا: واقوماه ذهب والله بنو قريظة.

فلما استقرّ بسعد المجلس، التفت إلى اليهود وقال لهم: يا معشر اليهود أرضيتم بحكمي فيكم؟

قالوا: بلى قد رضينا بحكمك، فأعاد عليهم القول.

فقالوا: بلى يا أبا عمرو.

عندها التفت سعد إلى رسول الله (ص) وقال اجلالاً له: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله ما ترى؟

قال (ص): احكم فيهم يا سعد، فقد رضيت بحكمك فيهم.

فقال سعد: قد حكمت يا رسول الله أن تقتل رجالهم، وتسبي نساءهم وذراريهم، وتقسّم غنائمهم وأموالهم بين المهاجرين والأنصار.

فنفّذ المسلمون حكم سعد فيهم فساقوا الأُسارى إلى المدينة، وأمر رسول الله (ص) بأن يحفروا حفراً في البقيع، فلما أمسى أمر بإخراج رجل رجل، فأُخرج كعب بن أسد، فلما نظر إليه رسول الله (ص) قال له: يا كعب أما نفعك وصية ابن حواش الحبر الذي أقبل من الشام وقال: تركت الخمر والخمير، وجئت إلى البؤس والتمور، لنبي يبعث، هذا أوان خروجه، يكون مخرجه بمكّة، وهذه دار هجرته، وهو الضحوك الذي يجتزئ بالكسرة والتميرات، ويركب الحمار العاري، في عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوّة، يضع سيفه على عاتقه لا يبالي من لاقى منكم، يبلغ سلطانه منقطع الخف والحافر؟

فقال كعب: قد كان ذلك يا محمد، ولولا أن اليهود يعيّروني اني جزعت عند القتل لآمنتُ بك وصدقتك، ولكني على دين اليهود عليه أحيا وعليه أموت.

فأمر رسول الله (ص) بضرب عنقه، فضربت.

ثم قدّم حييّ بن أخطب فضربت عنقه، ثم ضربت أعناق الباقين، وكانوا قليلين جداً.

ويؤيّد ذلك سيرة الرسول (ص) في التقليل من القتل حسب الإمكان.

واصطفى (ص) لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو ثم قسم رسول الله (ص) بين المسلمين الأموال والنساء والذراري، وذلك بعد أن أخرج خمسها.

شهداء الخندق وقريظة

وكان قد استشهد من المسلمين يوم الخندق وقريظة: سعد بن معاذ، فإنه بعد أن حكم في بني قريظة، انفجر جرحه بالدم فأرجعوه إلى خيمته الذي ضربت عليه في المسجد، فما لبث أن نزل جبرئيل على رسول الله (ص) وقال: من هذا العبد الصالح الذي مات، فقد فتحت له أبواب السماء وتحرك له العرش.

فخرج رسول الله (ص) إلى المسجد فإذا بسعد بن معاذ قد قبض.

وممن استشهد يوم الخندق وقريظة: الطفيل بن النعمان، وأنس به اوس، وعبدالله بن سهل، وثعلبة بن غنمة، وكعب بن زيد، وخلاد بن سويد الذي طرحت عليه امرأة من بني قريظة رحى فقتلته به، ومات في الحصار أبوسنان بن محصن أخو عكاشة بن محصن.

مع ابن باطا

وكان لابن باطا وهو من رؤساء بني قريظة يد عند ثابت بن قيس، فأتى ثابت رسول الله (ص) وقال: يا رسول الله كان لابن باطا عندي يد وقد أحببتُ أن أجزيه بها فهب لي دمه.

فقال رسول الله (ص): هو لك.

فأتاه فأخبره بذلك.

فقال ابن باطا: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة؟

فأتى ثابت إلى رسول الله (ص) وقال: يا رسول الله أهله وولده.

قال (ص): هم لك.

فأتاه فأخبره بذلك.

فقال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك؟

فأتى ثابت إلى رسول الله (ص) وقال: ماله يا رسول الله.

قال (ص): هو لك.

فأتاه فأخبره بأنّ ماله له وفاءاً.

عند ذلك قال ابن باطا لثابت: أين كعب بن أسد؟

قال ثابت: قتل.

قال: فما فعل حييّ بن أخطب؟

قال: قتل.

قال: وما هي حال غزال بن شمول؟

قال: قتل.

فلما سمع ابن باطا بقتل هؤلاء قال لثابت: أسألك بيدي عندك يا ثابت إلاّ ما ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر حتى ألقى الأحبّة، فلمّا رأى ثابت هذه اللجاجة من ابن باطا مع ما منّ عليه رسول الله(ص) من العفو عنه وعن أهله وأولاده وماله غضب وقال: لا بأس، ثم قدمه وضرب عنقه.

سرية ابن مسلمة إلى نجد

ثم بعث رسول الله (ص) خيلاً قبل نجد وجعل عليهم محمد بن مسلمة، فظفروا برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أُثال، وكان قد قتل من المسلمين، فأسروه وجاءوا به إلى المدينة فربطوه بسارية من سواري المسجد، وقيل: أودعوه في غرفة على باب المسجد.

فخرج إليه رسول الله (ص) وقال له: ما عندك يا ثمامة؟

فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فاسأل منه ما شئت.

فتركه حتى كان الغد، ثم قال (ص) له: ما عندك يا ثمامة؟

قال: ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر إلى آخره.

فتركه حتى كان بعد الغد فقال (ص) له: ما عندك يا ثمامة؟

قال: عندي ما قلت.

قال (ص): أطلقوا ثمامة.

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لاإله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، وأما الآن فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين إليَّ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إليّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أُريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشّره رسول الله (ص) وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟

قال: لا ولكن أسلمت مع محمّد رسول الله (ص)، ولا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي (ص)، وكانت اليمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش، فكتبوا إلى رسول الله (ص) يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي لهم حمل الطعام، ففعل رسول الله(ص) ذلك.

غزوة الغابة

وتعرف بذي قرَد بفتح القاف والراء، وهو ماء على بريد من المدينة بطريق الشام، وكانت هذه الغزوة في ربيع الأول سنة ست من الهجرة النبويّة المباركة.

وسببها: أنه كان لرسول الله (ص) عشرون لقحة ـ وهي ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة ـ ترعى بالغابة فأغار عليها عيينة بن حصن الفزاري ليلة الأربعاء في أربعين فارساً فاستاقوها وقتلوا الراعي، وكان فيهم رجل من غفار وامرأته، قتلوا الرجل وسبوا المرأة.

ونودي: يا خيل الله اركبي، وكان أول ما نودي بها، كما انه كان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع السلمي، كان ناهضاً إلى الغابة، فلما علا ثنية الوداع نظر إلى خيل الكفار فصاح، فأنذر المسلمين، ثم نهض في آثارهم فأبلى بلاء حسناً عظيماً، ورماهم بالنبل حتى استنقذ ما كان بأيديهم من اللقاح، واستخلص المرأة، واستلب منهم ثلاثين بردة.

فلما وقعت الصيحة بالمدينة كان أول من أتى إلى رسول الله (ص) من الفرسان المقداد بن عمرو، ثم عباد بن بشر الأشهلي، وأُسيد بن حضير أخو بني حارثة، وعكاشة بن محصن، ومحرز بن نضلة الأسدي الأخرم، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، وأبو عياش عبيد بن زيد بن صامت الزرقي.

فلما اجتمعوا خرج رسول الله (ص) حتى أدرك ابن الأكوع.

فلما رأى ابن الأكوع رسول الله (ص) قال: يا رسول الله قد حميت القوم الماء فابعث إليهم الساعة.

فقال (ص): يابن الأكوع إذا ملكت فاسجح، أي: سهّل وحسّن العفو.

ثم ان أول من لحق بهم محرز بن نضلة الأخرم، فأخذ ابن الأكوع بعنان فرسه، وقال: يا أخرم ان القوم قليل فاحذرهم لايقتطعوك حتى يلحق بنا أصحابنا.

فقال الأخرم: يابن الأكوع لا تحل بيني وبين الشهادة، فخلّى سبيله، فالتقى هو والفزاري فعقر الأخرم فرسه، فطعنه الفزاري فقتل رحمه الله، ولحق أبو قتادة فقتل قاتل الأخرم، وولّى المشركون منهزمين.

وبلغ رسول الله (ص) ماء يقال له ذو قرد، ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة، وأقام (ص) يوماً وليلة ثم رجع إلى المدينة، وأقبلت امرأة الغفاري على ناقة رسول الله (ص)، فلما أتت المدينة نذرت أن تنحرها، فأخبرها رسول الله (ص) انه لا نذر لأحد فيما لا يملك، كما لا نذر في معصية.

سرية عكاشة إلى الغمرة

والغمرة: ماء لبني أسد، على ليلتين من فيد، أرسل إليهم رسول الله (ص) حين سمع بأنهم يريدون الإغارة على المدينة عكاشة بن محصن في أربعين رجلاً، وذلك في آخر شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة النبوية المباركة.

فلما أحسّ القوم بهم بكّروا في الهروب وتركوا مكانهم مائتي بعير، فساقها عكاشة إلى المدينة.

سرية زيد الى العيص

والعيص هي: منطقة على أربعة أميال من المدينة، خرج إليها في جمادي الأُولى زيد بن حارثة في مائة وسبعين راكباً ليأخذوا عيراً لقريش قد أخذت طريق العراق.

فالتقوا بأبي العاص ابن الربيع زوج زينب بنت رسول الله (ص)، وذلك عند مرجعه من الشام، وكان رجلاً مأموناً، وكانت معه بضائع لقريش، فاستاقوا عيره وأفلت، وقدموا على رسول الله (ص) بما أصابوا، فقسّمه بينهم.

وأتى أبو العاص المدينة فدخل على زينب بنت رسول الله (ص) مستجيراً بها وسألها أن تطلب من رسول الله (ص) ردّ ماله عليه، وما كان معه من أموال الناس.

فدعا رسول الله (ص) السرية وقال: إنّ هذا الرجل منا بحيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً ولغيره، وهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فإن رأيتم أن تردوا عليه فافعلوا، وإن كرهتم فأنتم وحقكم.

قالوا: بل نرد عليه يا رسول الله، فردوا عليه ما أصابوا، حتى إن الرجل يأتي بالشيء والرجل يأتي بالإداوة والرجل بالحبل، فما تركوا قليلاً مما أصابوا ولا كثيراً إلا ردوه عليه.

ثم خرج أبو العاص بالبضائع حتى قدم مكة فأدّى إلى الناس بضائعهم، حتى إذا فرغ قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم مال لم أرده عليه؟

قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، قد وجدناك وفياً كريماً.

قال: والله ما منعني أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا توقّياً أن تظنّوا اني أسلمت لأذهب بأموالكم، ثم قال معلناً: اني أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً عبده ورسوله.

سرية ابن حارثة إلى بني فزارة

وفي شهر رجب سنة ست من الهجرة النبوية المباركة بعث رسول الله (ص) زيد بن حارثة على رأس جماعة إلى وادي القرى وذلك لأن زيداً كان يذهب إلى الشام في تجارة ومعه بضائع من أصحاب النبي (ص)، فلما قربوا من وادي القرى أغار عليهم قوم من فزارة، فقتلوا المسلمين، ونجى زيد بنفسه، فلما قدم زيد المدينة وقد خلص بنفسه، بعثه رسول الله (ص) مع جماعة إلى بني فزارة، فلقيهم بوادي القرى فأصاب منهم أموالاً وقتل منهم رجالاً ورجع إلى المدينة بعد أن وطّد الأمن في الطريق.

غزوة بني المصطلق

ثم كانت غزوة بني المصطلق وهم بطن من خزاعة، ورأسهم الحارث بن أبي ضرار، وقد تهيّأ للزحف على المدينة حيث سار الحارث في قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلى حرب رسول الله (ص) فأجابوه.

فلما سمع بهم رسول الله (ص) خرج إليهم في بشر كثير لليلتين خلتا من شعبان سنة

ست من الهجرة النبوية المباركة، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري وقيل: نميلة بن عبدالله الليثي، فلقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله (ص) أصحابه أن يحملوا عليهم حملة رجل واحد، فما أفلت منهم انسان، وقتل عشرة منهم وأسر سائرهم، وسبى رسول الله (ص) النساء والذراري، وغنم الأموال والشاء والنعم.

وكان من السبي أُم المؤمنين (جويرية) بنت الحارث بن أبي ضرار سيّد بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها، فأدّى رسول الله (ص) عنها وأعتقها فتزوّجها وسمّاها برّة، فلما بلغ المسلمون ذلك أعتقوا إجلالاً لرسول الله (ص) ما كان في أيديهم من السبايا وكانوا مائة أهل بيت من بني المصطلق وقالوا: أصهار رسول الله (ص)، فما علم امرأة أعظم بركة على قومها منها.

في طريق المدينة

وفي رجوع رسول الله (ص) من هذه الغزوة قال عبدالله بن أُبيّ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، وذلك لشرّ وقع بين جهجاه بن مسعود الغفاري من المهاجرين وبين سنان بن وبر الجهني من الأنصار.

فنادى الغفاري: يا للمهاجرين.

ونادى الجهني: يا للأنصار.

فقال رسول الله (ص): أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟

وبلّغ زيد بن أرقم رسول الله (ص) مقالة عبدالله بن أُبي فنزل في ذلك من عند الله سورة المنافقين، وتبرأ عبدالله بن عبدالله بن أُبي من أبيه، وأتى رسول الله (ص) فقال له: يا رسول الله أنت والله الأعزّ وهو الأذلّ، والله لئن شئت لنخرجنّه يا رسول الله، ووقف لأبيه قرب المدينة فقال: لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله (ص) في الدخول.

فشكى الأب ابنه إلى رسول الله (ص) فأرسل إليه: أن خلّ عنه يدخل.

فقال: الآن وقد جاء الإذن فنعم.

وقال أيضاً: بلغني أنك يا رسول الله تريد قتل أبي واني أخشى إن أمرتَ بذلك غيري ألا تدعني نفسي أرى قاتل عبدالله يمشي على الأرض فأقتله وأدخل النار إذا قتلت مؤمناً بكافر، وقد علمت الأنصار أني من أبرّها لأبيه، ولكن يا رسول الله إن أردت قتله فمرني بذلك فأنا

والله أحمل إليك رأسه.

فقال له رسول الله (ص) خيراً، وأخبره أنه يحسن صحبة أبيه مادام هو معهم.

سرية الفهري إلى عرينة

وفي شهر شوّال سنة ست من الهجرة النبوية المباركة كانت قصة العرينيّين، وذلك انه قدم على رسول الله (ص) عرينة وكانوا ثمانية أشخاص فأسلموا، فاستوبأوا المدينة واستوخموها.

فأمر رسول الله (ص) بهم إلى لقاحه وكانت خمس عشرة لقحة . واللقحة ذات اللبن القريبة العهد بالولادة . وقال: (لو خرجتم إلى ذود لنا فشربتم من ألبانها).

فلما خرجوا إليها قتلوا الراعي وقطعوا يده ورجله، وغرسوا الشوك في لسانه وعينه حتى مات، واستاقوا الإبل.

فبلغ ذلك إلى رسول الله (ص) فبعث في اثرهم عشرين فارساً واستعمل عليهم ابن جابر الفهري، فعقّبوهم حتى أدركوهم، فلما أدركوهم أحاطوا بهم وأسروهم واستردّوا الإبل وقدموا بهم المدينة.

قال جابر بن عبدالله ان رسول الله (ص) كان قد دعا لما بعث إليهم وقال: (اللهمّ اعم عليهم الطريق) فعمي عليهم الطريق، فلما أُتي بهم، أمر (ص) بقتلهم.

الفهرس

المقدمة ٣

الإسم والنسب ٤

الشجرة الطيّبة ٤

ارهاصات المولد الشريف ٦

أيام الرضاع ٦

فقدان الأم ٧

فقد الجد ٧

في كفالة أبي طالب ٧

في طريق الشام ٨

الزواج المبارك ٨

مع حلف الفضول ٩

تجديد بناء الكعبة ١٠

الجاهلية وعبادة الأصنام ١١

من خرافات الجاهلية ١٢
قريش وسكان الحرم ١٢
التحدث بأمر الرسول (ص) ١٤
فصل ١٦
في المبعث الشريف ١٦
لقاء في الشام ١٧
امتحان واختبار ٢٠
أول المؤمنين ٢٠
إبلاغ الرسالة ٢٢
موقف أبي طالب (ع) ٢٣
منطق الجاهليّين ٢٥
أما أصحابه: ٢٥
عمّار وأبواه ٢٥
مع بلال ٢٥
الهجرة إلى الحبشة ٢٦
من بركات الهجرة ٢٦
اسلام النجاشي ٢٩
إسلام حمزة ٢٩
أبو طالب ومواقفه المشرّفة ٣٠
مكيَدَة قريش ٣١

قريش يتآمرون ٣١
الصحيفة المشؤومة ٣٢
نقض الصحيفة ٣٢
عام الحزن ٣٤
اشتداد أذى قريش ٣٤
مع ابن أبي معيط ٣٥
البنت الوفية ٣٥
نماذج من أذى قريش ٣٦
مع البنت الحنون ٣٦
في ظل الكعبة ٣٦
مع جماعة الأحلاف ٣٦
الحرب الثقافية ضد القرآن ٣٩
وفد المشركين إلى أحبار المدينة ٣٩
مع رؤوس الشرك ٤٠
تخطيط الوليد ضد القرآن ٤١
الوليد برواية أُخرى ٤٢
مع العتبة بن ربيعة ٤٣
مع المستهزئين ٤٤
ويل لكلّ هُمَزَة ٤٥
الكافر بآيات الله ٤٦

الإنسان الطاغي ٤٦
الأفّاك الأثيم ٤٦
حصب جهنم ٤٧
عظيما القريتين ٤٨
الظالم وخليله ٤٨
صاحب المثل ٤٩
لا للحل الوسط ٤٩
طعام الأثيم ٥٠
مع الملأ من قريش ٥٠
اتهامات واهية ٥١
الشماتة بالرسول (ص) ٥١
مع ركانة ٥١
اصطحاب الملائكة ٥٢
مع الهمّازين ٥٢
أشد من يوم أُحد ٥٣
رؤوس المستهزئين ٥٣
وفد قساوسة الحبشة ٥٤
رحلة إلى الطائف ٥٥
في منزل نخلة ٥٦
العودة إلى مكة ٥٧

فصل **٥٨**

في معراجه (ص) **٥٨**

رحلة إلى السماء **٥٨**

المشركون وأنباء الرحلة **٦٠**

لا لليأس والخيبة **٦٢**

الالتقاء بوفد اليمامة **٦٢**

مع رهط من الخزرج **٦٤**

العقبة الأُولى وبيعتها **٦٥**

العقبة الثانية وبيعتها ٦٥

إبليس وبيعة العقبة **٦٧**

بيعة العقبة على لسان جابر **٦٨**

اسلام عمرو بن الجموح **٦٩**

فصل **٧٠**

في الهجرة النبوية المباركة **٧٠**

الهجرة **٧٠**

القرار الأخير **٧١**

جبرئيل وإفشاء المؤامرة **٧٣**

ليلة المبيت **٧٣**

القرآن ومبيت علي (ع) **٧٤**

ليلة الهجرة **٧٤**

تاريخ الهجرة..... ٧٥
المشركون يطلبون الرسول (ص)..... ٧٦
الجائزة لمن جاء بالرسول (ص) ٧٦
مع بريدة الأسلمي..... ٧٧
عند أُم معبد ٧٨
انتظار المسلمين للرسول (ص) ٧٩
أول جمعة بالمدينة..... ٨٠
عند أبي أيوب ٨٠
المسجد النبوي الشريف ٨٢
بناء المسجد..... ٨٢
مغادرة بيت أبي أيوب ٨٣
المؤاخات بين المهاجرين والأنصار..... ٨٣
النبي (ص) ونقباء الأنصار ٨٤
تشريع الأذان ٨٥
أبو سفيان: أول من صادر أموال المسلمين..... ٨٥
المدينة ودعاء الرسول (ص) ٨٦
علي (ع) يخطب فاطمة (ع) ٨٧
صداق الزواج..... ٨٧
ابداء الرضا ٨٨
إعلان خبر الزواج..... ٨٨

الصداق لمصلحة الزوجين ٨٩

البساطة في أُمور الزواج ٩٠

وليمة الزفاف ٩٠

ليلة الزفاف وآدابه ٩١

صبيحة ليلة الزفاف ٩١

ولادة السبطين ٩٢

ولادة الحسن بن علي (ع) ٩٢

ولادة الحسين بن علي (ع) ٩٣

مع أحبار اليهود ٩٤

اسلام ابن سلام ٩٥

المخيريق يعلن اسلامه ٩٦

مع ابني أخطب ٩٦

مكائد اليهود وتلبيسهم ٩٧

اليهود وتأجيج العداوات ٩٨

مع ابن أُبيّ وأبي عامر ٩٩

في طريق العيادة ١٠٠

عفو رسول الله (ص) ١٠١

تحويل القبلة ١٠١

صلاة الإستسقاء ١٠٢

فصل ١٠٤

في غزواته وسراياه (ص) ١٠٤
الإذن في الحرب الدفاعية ١٠٤
آداب وسنن ١٠٤
النبي (ص) وانقسام الكفار عليه ١٠٦
أوّل سريّة في الإسلام ١٠٦
سرية عبيدة بن الحارث ١٠٧
سريّة سعد ١٠٧
غزوة الأبواء ١٠٧
غزوة بَواط ١٠٨
غزوة ذات العشيرة ١٠٨
غزوة بدر الأُولى ١٠٩
سريّة عبد الله بن جحش ١٠٩
الشهر الحرام والقتال فيه ١١٠
بوادر النصر ١١٠
سرية عمير بن عدي ١١١
غزوة بدر الكبرى ١١٢
إلى وادي ذفران ١١٣
النبي (ص) يستشير أصحابه ١١٣
استطلاع أخبار قريش ١١٤
هروب أبي سفيان ١١٦

ليلة بدر ١١٦
التشاور يهدي إلى التفوّق..... ١١٧
الجمعان يلتقيان..... ١١٨
بوادر الهزيمة في المشركين ١١٩
الحرب: القرار الأخير ١٢٠
جنود الرحمن وجنود الشيطان يتقابلان ١٢١
المشركون ينهزمون ١٢٢
مصير أبي جهل ١٢٢
لما ألقت الحرب أوزارها..... ١٢٣
في طريق العودة..... ١٢٤
مع أسرى بدر ١٢٤
مع العباس بن عبد المطلب..... ١٢٥
بين المنّ والفداء ١٢٥
النبي (ص) يستوهب فداء صهره..... ١٢٦
النهي عن التعذيب والمُثلة..... ١٢٧
بؤرة التآمر والبخل ١٢٧
المشركون وأنباء الحرب ١٢٧
مصير أبي لهب ١٢٨
غزوة بني سُليم..... ١٢٩
غزوة بني القينقاع ١٢٩

غزوة السويق **١٣٠**

غزوة ذي أمَر **١٣١**

سريّة محمد بن مسلمة **١٣٢**

سرية زيد بن حارثة **١٣٣**

سرية عبدالله بن عتيك **١٣٣**

غزوة أُحُد **١٣٤**

رسالة من مكة **١٣٤**

النبي (ص) يستشير أصحابه **١٣٥**

الخروج إلى أُحُد **١٣٥**

التقاء الجمعين **١٣٦**

بدء القتال ١٣٧

المشركون ينهزمون **١٣٨**

المسلمون لما عصوا الرسول (ص) **١٣٩**

لا فتى إلاّ علي لا سيف إلاّ ذوالفقار **١٤٠**

مصرع حمزة سيّد الشهداء **١٤١**

دناءة بني أُمية وأتباعهم **١٤٢**

مع أبي دجانة **١٤٢**

الثابتون مع الرسول (ص) **١٤٣**

عمرو بن الجموح والشهادة **١٤٣**

الشهادة والمساهمة عليها **١٤٤**

غسيل الملائكة **١٤٥**

عين قتادة **١٤٥**

يد ابن عتيك..... ١٤٦

نيف وسبعون جراحة..... **١٤٦**

المتجرّئون على رسول الله (ص)..... **١٤٦**

مع أُبيّ بن خلف ١٤٧

نماذج من الصحابة المؤمنين..... **١٤٧**

يوم بلاء وتمحيص..... **١٤٨**

رجل من أهل الجنّة..... **١٤٨**

ابليس ينتهز الفرصة ١٤٩

المسلمون يثوبون **١٥٠**

صاحب المهراس..... **١٥٠**

الصلاة في زوال أُحد..... **١٥١**

دأب بني أُمية وأتباعهم **١٥١**

خاتمة القتال..... **١٥١**

هتافات متقابلة..... **١٥٢**

استطلاع أخبار القوم..... **١٥٢**

انّ الله بالغ أمره **١٥٣**

مدفن الشهداء **١٥٣**

على مشارف المدينة **١٥٤**

مع ابنة جحش..... **١٥٤**

النساء المخلصات **١٥٥**

البكاء على حمزة **١٥٥**

غزوة حمراء الأسد **١٥٦**

سرية الغنويّ إلى الرجيع **١٥٧**

سرية منذر إلى بئر معونة **١٥٧**

غزوة بني النضير **١٥٩**

أموال بني النضير **١٦٠**

من أسلم من بني النضير ١٦١

غزوة بني لحيان **١٦٢**

غزوة ذات الرقاع **١٦٢**

كرم رسول الله (ص) وحلمه **١٦٣**

ثبات وصمود **١٦٣**

تفقّد الرسول (ص) أصحابه **١٦٣**

الله أرحم بكم **١٦٥**

غزوة بدر الأخيرة **١٦٥**

مع أشجع وبني ضمرة **١٦٦**

غزوة دومة الجندل **١٦٧**

غزوة الخندق (الأحزاب) **١٦٨**

المشورة تهدي إلى الظفر **١٦٩**

النبي (ص) يجوع ليَشبع الآخرون **١٧٠**

بوارق الفتح ١٧٠
في ضيافة جابر ١٧١
المشركون ومحاصرة المدينة ١٧٢
بني قريظة يعلنون خيانتهم ١٧٤
النبي (ص) وأخبار بني قريظة ١٧٤
مفاوضات عسكرية ١٧٥
بدء القتال ١٧٦
الايمان كله مع الشرك كله ١٧٦
على أعتاب المصاولة ١٧٧
ضربة علي (ع) يوم الخندق ١٧٩
ضربتان: أعزّ وأشأم ١٨٠
مع ابنة عبدود ١٨٠
في الحرب ومع المشركين فقط ١٨١
الأحزاب ينهزمون ١٨٢
حذيفة ودعاء الرسول (ص) ١٨٢
القرآن وغزوة الأحزاب ١٨٣
غزوة بني قريظة ١٨٤
زلة أبي لبابة وتوبته ١٨٥
حكمية سعد بن معاذ ١٨٥
شهداء الخندق وقريظة ١٨٧

مع ابن باطا ١٨٧

سرية ابن مسلمة إلى نجد..... ١٨٨

غزوة الغابة..... ١٨٩

سرية عكاشة إلى الغمرة ١٩٠

سرية زيد الى العيص..... ١٩٠

سرية ابن حارثة إلى بني فزارة ١٩١

غزوة بني المصطلق ١٩١

في طريق المدينة ١٩٢

سرية الفهري إلى عرينة.....١٩٣

الفهرس..... ١٩٤